جامعة ديالى

كلية التربية الاساسية

قسم اللغة العربية

ادب العصور المتأخرة

المرحلة الرابعة

أستاذ المادة

م.م خولة إبراهيم

مفردات المنهج :

- نظرة تاريخية الى الأحوال السياسية والثقافية في عهد الاحتلال المغولي والتركماني والعثماني
- اثر الاحتلال في الادب
- الفنون الشعرية
- ابرز الأغراض الشعرية التقليدية
- الفنون الشعرية المستحدثة (الموشح – الزجل – القوما – الكان وكان – المواليا)
- ابرز الشعراء
- ابن نزيلاق الموصلي
- شرف الدين البوصيري
- صفي الدين الحلي
- عبد الغفار الاخرس
- الفنون النثرية
- الخطبة
- المقالة
- ابرز الكتاب :
- ابن حجة الحموي

١-الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية

الحياة السياسية :

أطل القرن السابع للهجرة على العالم العربي ، وهو في حالة ضعف وفوضى واضطراب . وكان الخلفاء ألعوبة بيد الاعاجم الذين تسلطوا بالبلاد كما شاؤوا ، وازدادت حدة الفوضى والاضطراب في أيام الخليفة المستعصم بالله ، فقد كان ضعيف الرأي متسرعاً إلى اللذة واللهو ومتكلاً أمور دولته إلى رجل يدعى ابن العلقمي الذي ولي الوزارة أربع عشرة سنة ، وتعاضد مع التتر لاسقاط دولة بني العباس (١) ليستخلص الحكم لنفسه وأتباعه لكن عذاب سحيق ومات دون أن ينال مبتغاه .

ان ضعف الخلافة ، وتفرق الناس شيعاً وأحزاباً وفقدان الامن والطمأنينة شجعت هولاكو على الزحف نحو العراق والبلاد العربية والسيطرة عليها ، فتوجه نحوها ، واحتل في طريقه بلاد فارس ، وفتك بأهلها أشد الفتك وقبل وصوله إلى بغداد حذر الناس الخليفة المستعصم بالله من هذا الزحف ، والعواقب الوخيمة التي تنتظر رعاياه ، لم يبادر إلى إعداد جيش قوي وتهيئة عُدده ، واصلاح الاوضاع الداخلية وتقويمها ، ولكنه لم يلتفت إلى ذلك ، وترك الامر سائباً ، وبقي سادراً في لهوه وملذاته . قال ابن العلقمي (٢) : «وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الاغاني ، لايكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة وكان لندمائه وحاشيته جميعهم منهمكون معه على التنعم واللذات ، لايراعون له صلاحاً ، وفي بعض الأمثال : الحائن (٣) لايسمع صياحاً . وكانت له

(١) المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٩٣ . عيون التواريخ ٢٠ : ١٩٣ . معاهد التنصيص ٤ : ٨٤
(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٤٩
(٣) حان الرجل : هلك ، فهو حائن .

لقد كانت القصائد الشعرية التي حفر فيها الشعراء المسؤولين ورجال الحكم صيحة في واد ونفخة في رماد. وزحف «هولاكو» نحو العراق بمائتي الف محارب ودخل بغداد سنة ٦٥٦هـ، وقتل الخليفة وأناساً كثيرين ،وشوه معالم الحضارة والمدنية المعمورة منذ قرون عديدة (١).

ولما استقر التتر في بغداد ، خضعت لهم كافة المدن العراقية خوفاً ورهبة وقاسى الناس في ظل حكمهم الويلات والمصائب.

وهلك الطاغية هولاكو سنة ٦٦٣هـ، وتولى الحكم ابنه «أباقا خان» وكان خيراً من أبيه اذ طمأن الناس على انفسهم واموالهم بعض الاطمئنان ، ومات سنة ٦٨٠هـ ، واجتمع امراء التتر ، واختاروا « تكودار خان» وهو ابن هولاكو وقد أسلم وتسمى بأسم احمد، وثار عليه «أرغون» ابن أخيه وقتله وانتزع الملك لنفسه ، ويقال ان اسلامه سبب قتله . وجاء بعده أخوه «كيخاتو خان» وكان رجلا سيئاً ، متهالكاً على اللذات ، وقتل سنة ٦٩٤هـ، وتولى السلطة من بعده «بايدو» الا أنه لم يحكم الا شهوراً ، فقد انتزع منه الملك «غازان بن أرغون» الذي أسلم،وأسلم معه مئة الف من جنده، وبقي الحكم في هذه الأسرة الى ان انقرض سنة ٧٣٨هـ. وخير مايوصف عهدهم بقول أحد الباحثين (٢) : «فزمانهم زمان نزاع وتخاصم ، والملك لمن غلب ، والحق للأقوى ، والفوضى تهيمن على مرافق دولتهم من كل جانب، وادارتهم مفككة يعوزها النظام واتحاد الكلمة. وقد نجمت كل مظاهر هذا الضعف والفساد في حكومة العراق، فلم تكن لبغداد والبصرة والجزيرة حكومة متحدة تنتظمها جميعاً ، بل كان الحكام والأمراء يتحاسدون ويتباغضون ويتربص كل منهم بصاحبه الدوائر ، وأن اسرة حاكمة هذا شأن أفرادها وأعوانهم ،ولايمكن ان تفتح للبلاد طريقاً إلى الخير ولا أن تأخذ بيد الرعية الى المجد والفلاح».

(١) ينظر عصر الانحدار ص ٨ – ٢٦.
(٢) في الادب الاسلامي، فضولي البغدادي ص ١١٩.

الرفاع من الصوام ، وفيها أنواع التعذير ،وأثبتت فيها الاشعار في أبواب دار الخلافة ، فمن ذلك:

قـــل لـلـخـلـيـفـة مـهـلا أتاك مـــــالا تـــحـــسـبُ
هـذا قـيـد دهـتـك فـنـون من المصـــائـب خـــربه
فاتهـضْ بـعـــــزم والا غشـــاك ويـــــلٌ وحرب
كسرٌ وهـــــتـــكٌ وأسرٌ ضـــربٌ ونهـــبٌ وسلب

وكل ذلك وهو حاكمٌ على سماع الأغاني ،واستماع المثالث والمثاني، ومالكه قد أصبح واهي المباني».

والطلقت ألسنة الشعراء تكشف واقع المجتمع الفاسد ،والمصائب التي تنتظره ،وكان أجرأ شاعر في هذا الميدان عبد الدين النشابي (ت٦٥٧هـ) الذي نظم قصيدة طويلة مطلعها :(١)

ياسائلي ولمحض الحق يرتادُ أصيخ فمندي نشدانٌ وإنشادُ

أشار فيها الى اضطراب الاوضاع وفسادها، واختلال الأدارة ، وانظام المصادرة ، والتعدي على الناس، والقضاء على الحريات ،ومحو العدل والمساواة ،وألتقد بشدة الوزراء ورجال الشرطة المتشلين بحيثهم، وتصرفهم، الخارقين في لهوهم ومجونهم، وتهجم على رجال الدين الذين تركوا ما أوصاهم به الله وما أوجب عليهم من نصح العباد وارشادهم. وفي آخر القصيدة تمنى الموت قبل رؤية المسلمين، وهم واقعون في كارثة يشيب من هولها الولدان فقال :

اين المنية منسي كي تـــــداورني فللمنية إصـــدارٌ وايـــــرادُ
من قبل واقعة شنعاءُ مظلـمـةٍ يشيبُ من هولها طفلٌ وأكيادُ

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٧٠ ، ونسب أيضاً الى عبد القاهر بن الفوطي (المعجم المسبوك ص ٦٧٤، وفيه ابن القرطبي ، وهو تصحيف، وقد أشار الى ذلك الدكتور مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث ١: ٣٢٦).

واعتلى منصة الحكم الشيخ حسن الكبير الايلخاني أمير بلاد الروم، ولم يطل عهده ، اذ استولى الجلائريون على البلاد، وهم قوم من عنصر مغولي أيضاً، وكان ذلك سنة ٧٤٠هـ. وشاد في هذا العهد الى بغداد بعض رونقها فقامت العمائر ، وشيدت المدارس الكبيرة، ومن أشهر أمرائها مرجان ابن عبد الله الأولجايي. وكان من أهل الفضل، أشاد مدرسة على غرار المدرسة النظامية الكبرى التي بناها الوزير السلجوقي نظام الملك، وبنى دار الشفاء لتكون معهداً ومستشفى ، كما بنى كثيراً من الخانات والأسواق.

وبقيت الدولة الجلائرية قائمة الى ان هجم عليها «تيمورلنك» سنة ٧٩٥هـ وفتك بأهل بغداد أفظع الفتك ، وأتلف تحفها وذخائرها ودورها وقصورها ومكاتبها ومرافقها ومدارسها وجوامعها. ولقي الناس من جنده الويلات حتى اقفرت المدن ، وأضحى جميع أهلها فقراء، ومات خلق كثير من التعذيب والجوع والأوبئة ، وزحفت جيوشه نحو الديار الشامية وأذاقتهـــا الفتك والهوان، لاسيما حمص وحماة ودمشق (١).

ولما هلك تيمورلنك سنة ٨٠٦هـ عادت الدولة الجلائرية الى الحكم من جديد ، ولكنها لم تدم طويلا ، حيث قامت دولة قراقو يوتلو التركمانية سنة ٨١٤هـ، وبقيت تحكم الى سنة ٨٧٤هـ، وأعقبتها دولة آق قويونلو ، وقد اتخذت الأغنام البيض شعاراً لها، بمقابلة قراقو يوتلو الذين كانوا يتخذون الأغنام السود شعاراً لهم.

وما كادت الاخيرة تضمحل حتى جاء الصفويون سنة ٩١٤هـ وأقاموا دولة فارسية ، وكان عهدهم عهداً أسود ظالماً، ولم يطل حكمهم، اذ نازعهم الأكراك العثمانيون ، واستولوا على العراق سنة ٩٤١هـ. ولم يصف جو البلاد الا في عهد نفر من ولاتهم المصلحين وسلاطينهم المشهورين مثل سليمان القانوني الذي مكث في بغداد ستة أشهر وأصلح شؤونها «وزار كربلاء

(١) ينظر عصر الانبعاث ص ٧٠

والنجف وأصدر أوامره بحفر قناة تأتي بماء الفرات ليخترق الخسب سهل كربلاء، فزكا زرعه وأتى أكله وسدت خلاته حاجة أهل بغداد جميعاً وأحاطت الرياض بمشهد الحسين بعد ان كانت الرياح تسفي عليه (١)» والتهت الدولة العثمانية سنة ١٣٣٥هـ .

ولم تكن مصر بأحسن من حال العراق ، فان الاسرة الأيوبية الحاكمة فقدت قوتها في أيامها الأخيرة، وسقطت سنة ٦٤٨هـ.بيد المماليك الذين امتد حكمهم الى الشام والحجاز ، وكان اول حاكم لهم عز الدين أيبك الذي قتل غيلة بعد فترة وجيزة من حكمه، وجاء قطز ، وهو رجل داهية ساس البلاد خير سياسة ، واستطاع تحطيم جيش التتر في الشام والانتصار عليهم في «عين جالوت». ولكنه قتل أيضاً. وتسلم الملك بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨هـ، وكان رجلا حازما ، أحسن الى الرعية ، وازال عنهم كثيراً من الضرائب ، وفتح بابه لاستماع شكاواهم. وأشاد المدارس والمساجد وتوفي سنة ٦٧٦هـ. واعتلى منصة الحكم ابنه «محمد»، وكان فيه كثير من لزق الشباب وطيشه ، فعزل عن عرشه ، واعتلاه سيف الدين قلاوون الألفي. ولقب بالملك المنصور. وهو الذي شتت شمل المغول في الشام وحارب الصليبيين . ومات سنة ٦٨٩هـ. وتولى الملك بعد ابنه صلاح الدين خليل. وتلقب بالملك الأشرف . وكان شجاعاً ، جهز حملة بقيادته على الصليبيين في عكا التي كانت الحصن الحصين الوحيد الذي بقي بيدهم ، فدكها ، وشرد جموعهم . وعاد الى القاهرة. وبين يديه الأسف الأسرى ولم تقم للصليبيين بعد ذلك قائمة. ولما توفي سنة ٦٩٢هـ تولى السلطنة أخوه محمد . وتلقب بالملك الناصر . وفي عهده بلغت دولة المماليك أوجها . ومات سنة ٧٤١هـ بعد حكم دام ثلاثاً وثلاثين سنة . وتعاقب على السلطنة ملوك ضعفاء وانتهى عهدهم سنة ٧٨٤هـ . وكانوا يعرفون بالمماليك البحرية ، وجاء بعدهم المماليك الشراكسة. وكان أول ملك لهم الظاهر برقوق. وتولى بعده

(١) في الأدب الاسلامي، فصول البداعي ص ١٣٣

ثلاثة وعشرون ملكاً ، وكان آخرهم الاشرف طومان باي ، الذي لـــم يستطع الوقوف أمام الجيوش العثمانية وقتل سنة ٩٢٢ هـ وشنق على باب زويلة وفي ذلك يقول ابن اياس (١) :

توحوا على مصـــر لامر قد جرى ومصرية عمت بليتهـــا الورى

ومنها ، وفيه إشارة الى شنق طومان باي :

شقوهُ ظلمـاً فوقَ بابِ زويلة ولقـد أذاقوهُ الوبالَ الاكبـرا
يارب عفواً حســن عظائـم جرمه واجعـلْ بجنات النعيم له قرى

وانتهت دولة المماليك الشراكسة بعد أن حكمت مصر والشام والحجاز ١٣٩ سنة ، أما الحكم العثماني فانه استمر الى سنة ١٢٢٠هـ وهي السنة التي استولى فيها محمد علي الكبير على الحكم .

أما المغرب العربي في شمال أفريقيا فقد تنازع الحكم فيها الموحـدون والمرينيون والحفصيون الى أن جاءها الحكم العثماني . ثم الغربيون من إسبان وبرتغاليين وفرنسيين .

(١) الادب المصري في ظل الحكم العثماني ص ١٠

الحالة الاجتماعية

ساءت الاوضاع الاجتماعية بعد سقوط بغداد ، اذ استولى الغرباء على خيرات البلاد ، وقضوا على موارد الثروة ، وتركوا السكان الاصليين في بؤس وشقاء . كما فسدت الاخلاق ، وكثر الدجالون الاشرار والمفسدون لاسيما الذين كانوا يسمون أنفسهم بالشطار ، فقد عاثوا في البلاد فساداً وابتزوا أموال الناس ظلماً وعدواناً ، وكم أسرقوا البيوت والزروع ، ورجال الشرطة ، واهل الاحتساب لاهون ساهون ، أو أنهم كانوا يخافون فلا يستطيعون ايقاف أعمالهم المريبة أو الشاذة ، أو الحيلولة دون جرائمهم الشيطانية الغريبة (١) . وكثر في المجتمع الغش وفساد الضمائر . ولا ننسى في هذا المقام سوء الحالة الصحية وتفشي الامراض وهجوم الطاعون والوباء بين حين وآخر .

— أما حالة الاسرة فلم تكن أفضل من غيرها ، فقد تفككت عراها ، وانحط شأن المرأة ، وهبط مستوى أولادها ، وصار الرجل يقسو في معاملتها ويمنعها من الخروج ، ويسدل عليها ستار الجهل ويشدّد عليها الحجاب والانزواء عن مجالس العلم وحلقات الادب التي كانت تغشاها في العصور السابقة .

— وكانت الحالة الاجتماعية في مصر والشام أحسن حالا عليه في العراق ، فان المماليك حموا الديار التي سيطروا عليها من المغول والصليبيين . وبلغ الترف في أيامهم حداً بعيداً ، وتفنن بعض الناس في مأكلهم وملبسهم ، روى المؤرخون أن الاسياد قد رصعوا عصائبهم شعور نسائهم وثيابهن وحفافهن بالجواهر واللآلىء ، كما رصعوا آنية شرابهم وطعامهم بالذهب والحجارة الكريمة ، وانخذوا في مجالس لهوهم آنية وتماثيل ودمى من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة واللؤلؤ ولبسوا الثياب المزخرفة وافترشوا الدمقس والحرير والديباج ، واستعملوا آلات الشطرنج والنرد المصنوعة من الذهب والفضة والابنوس والعاج . ووجد في خزائن بعضهم من أصناف

(١) ينظر عصر الانهيار ١٤٩ — ١٥٦ ، ومطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٣٧

الثياب والحلي والرياش والاثاث مايقدر بملايين الدنانير (١) .

وشاعت عادة تناول الحشيش، وفعل الموبقات حتى اضطر الملك بيبرس سنة ٦٦٥هـ في القاهرة الى أصدار مراسيم بابطال تدخين الحشيش، وشرب الخمور، ومعاقبة المقبلين على المنكرات، كما أمر عماله أن يراقبوا أحوال الناس والباعة ويراقبوا الموازين والمكاييل ، ويتفاروا في أمر الاسعار ويتشددوا في مراقبتها .

أما التبغ فانه ظهر في مصر لاول مرة سنة ١٠١٢هـ كما ذكر الاسحاقي في تاريخه ، وذكر لنا رأيه فيه ، فقال (٢) «ان الدخان مضر بالابدان ، وهو يابس الطباع ، الذي لاشيء فيه من الانتفاع .... المورد للاسنان ، المهرب للافكة الرحمن ... حاقيته وخيمة ، ومداومة شربه ذميمة ، يورث النتن في الفم والمعدة، ويظلم البصر ، ويطلع بخاره على الافئدة» وهناك من أثنى عليه ، مثل قول أبي المواهب البكري (٣) (ت ١٠٣٧هـ) :

هات اسقني التبغ إن تبغ الصفا سحراً ... حتى أخبّر منه وهو الخبّاء
واستجل أنوار شمع من يدي رشأ ... قد زانه قامة بالحسن هيفاء
لعل نار أسى باليعد قد وقدت ... يوماً يكون لها بالقرب إطفاء
فاملأ كؤوس رحيق كالحريق فقد ... أخذتك اذ وصفت باللطف صهباء(٤)
ودع ملام طبيب عابها سفهاً ... (وداوني بالتي كانت هي الداء)(٥)

وكانت الجزيرة العربية بعيدة عن الاصلاح ، لذا اضطربت أحوالها ، واشتدت الفوضى إلبهاء وبخاصة الحجاز ، فان أهلها أخذوا يقاسون الويلات من المعيشة الضنكة ، ومن حوادث السلب والنهب ، ولاقت قوافل الحجاج وزوار الحرمين من بدو الحجاز وسائر الجزيرة أموراً مقلقة .

(١) مصر الاسحاقي ص ١٧٨ .
(٢) أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ص ١٦٦
(٣) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٣٤ .
(٤) كان التبغ يوضع في الأحجار التي تحفظ في النار جيلة ، وذلك ذكر الشاعر النار في الكؤوس ويعني بها الأحجار ، كما ذكر السالفي في الذي تناوله هذه النار جيلة ، وتحدر فيه مل حادة شعراء الحضرة .
(٥) عجز البيت لابي نواس (ينظر ديوانه ص ٦)

الحياة الثقافية :

ظلت الحركة الفكرية قوية نشيطة حتى أواخر العهد العباسي ، سواء في العلم أم في الأدب ، أم في الفن ، فلما تكبت بغداد بالغزو التتري ، واجتاحت الديار الجيوش المخيفة ، أصاب الناس عموماً بلاء كبير من تقتيل ونهب واحراق ، وذهب ضحية هذا الهجوم كثير من العلماء الفضلاء أمثال : يحيى بن يوسف الصرصري الشاعر المشهور ، ومحيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ، والامام محمود بن أحمد الزرنجاني ... واستبقى هولاكو بعض العلماء ممن كانوا يجيدون لغته أو يتقنون علوم الفلسفة والرياضيات والطبيعة التي كانت تعجبه فأخذهم معه إلى عاصمة ملكه .

أما المدارس ودور العلم وخزائن الكتب وربط الصوفية فقد أصابها أذى كبير ، وأضحت لاتتجاوز أصابع اليد بعد ان كانت تتجاوز المئات ، ومن المدارس التي بقيت في تلك الحقبة ، ولم يصبها تلف كبير النظامية الكبرى ، والمستنصرية ، والبشيرية . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يمض وقت طويل حتى عادت حركة إشادة المدارس والربط من جديد على الرغم من هجرة العلماء والأدباء إلى الاقطار المجاورة . ومن مشهوري العلماء في هذه الحقبة ابن الفوطي مؤرخ العراق الكبير ، وابن أبي الحديد الأديب الكاتب شارح نهج البلاغة ، والامام الصناعاني اللغوي الأديب ، وابن الساعي خازن دار كتب المستنصرية وأحد كبار مؤرخي بغداد ، وسواهم (١) ...

(١) تنظر الحياة الفكرية في العراق في القرن السابع الهجري ص ١٩٣ — ٣٢١ . والأدب العراقي في العصر المغولي للدكتور مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث ، الجزء الثاني سنة ١٩٥٥ .

م/٢/أ.ع.٠

سلوا البارقَ النجديَّ عن شُحبِ أيفاعي
وعما بقلبي من لواعج لوعتي
ولا تسألوا غيرَ الصبا عن صبابتي
وشدَّة أشواقي إليكم وأشجاني
تحيةُ مشتاقٍ إلى ذلك الحمى
وسكانه والنازحونَ بأظعانِ
سقى الله حاليك الديار وأهلها
سحائب تحكي صوب مدمعي الهاني
هي الحضرةُ العليا مدينة تونس
أليفة إلفانٍ وآها بإنسانِ
وكانتْ لطلابِ المعارفِ قبلة
لها في حماها من أئمة عرفانِ
إلى أن رمتها الحادثاتُ بأسهم
وسلّتْ عليها سيفَ بغي وعدوانِ
فما الدَّهرُ إلاَّ هكذا فاصبرنَّ له
رزية مال أو فراق خلانِ

أما في مصر والشام ، فإن المماليك ساروا على الدرب الذي اختطه الأيوبيون من قبلهم ، فأكثروا من المدارس ، حتى قال المقريزي في خططه أن مدارس المماليك في الشام ومصر قد بلغت نحواً من سبعين مدرسة ومعهداً للتدريس ، ويقال إن مثل ذلك العدد كان في الأصقاع والولايات التابعة لهم.

ومما يجدر ذكره هنا أن اللغة العربية وعلومها كانت مزدهرة في العصر المملوكي ، لأن المماليك كانوا يتعلمونها ويعلمونها أبناءهم ومماليكهم ، ويشجعون على اتقانها ، والبراعة فيها وفي آدابها وعلومها ، وألفت كثير من الكتب برسم كثير من السلاطين ، وإن الكثرة مما بأيدينا من كتب الأدب العربي الآن ، إن هي إلاَّ ثمرة من ثمرات هذا العهد الميمون الذي لم تتعرَّض كتبه لما تعرضت له كتب الشرق والغرب من حرق وإتلاف (١) .

ولما جاء الأتراك العثمانيون واحتلوا العراق والشام ومصر والحجاز هبط المستوى الثقافي والفكري على فئة قليلة من الناس ، وتدنَّت أساليب التدريس وطرائق الكتابة (٢) .

أما ديار المغرب العربي فإن الثقافة بقيت مزدهرة فيها ، وكان لعلمائها وأدبائها دورٌ بارزٌ في نقل الحضارة العربية إلى أوربا ، وقد ازدادت مكانة المعارف رفعة وسمواً فيها بعد نزوح العلماء والأدباء والفنانين والبناءين من الأندلس إليها ، ثم بعد مجيء العثمانيين فالاحتلال الأوربي ، ونقل هنا أبياتاً للشاعر محمد بن عبد السلام (ت٩٧٥هـ) الذي استقر في دمشق بعد نزوحه من تونس (٣) :

(١) تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين ص ٣٢ .
(٢) ينظر شاهر الإسلام لأحمد أمين ٤ : ١٩١ — ١٩٥ ، وأدب العراق في العهد العثماني ، بحث للدكتور علي أحمد الزبيدي المنشور في مجلة كلية الآداب ببغداد ، العدد ٢٦ ، حزيران ١٩٧٩ .
(٣) الأدب في العصر المملوكي للدكتور محمد كامل الفقي ص ٢٥ .

الفنون الشـــــعرية :

الفصل الأول

الشعر وخصائصه الفنية

لم ينضب معين الشعر العربي بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ولم يصبهم عنه الناهلون ، ولكنه لم يكن متدفقاً بقوة كما نلمحه في العصور السابقة ، لاسيما في العصر العباسي الأول .

لقد انقضت عهود التشجيع للشعر والرعاية الكبيرة له ، واضمحلت المجالس والمحافل التي تستقبل الشعراء وتحتفي بهم . فالملوك والرؤساء في بغداد أعاجم لايعرفون اللغة العربية ، وجانب كبير من الشعب جاهل لايفهم الشعر ولا يتذوقه .

أما في مصر والشام فقد وجد الفن الشعري جواً لابأس به ، استطاع أن يقوى على الوقوف والصمود ، فإن الملوك المستعربين أحاطوه برعايتهم أمثال بني أرتق في ماردين ، والملوك الأيوبيين في حماة وحمص كثيفا ، وعدد من سلاطين المماليك الذين ولدوا في البلاد الاسلامية ولشؤوا فيها كالملك الناصر محمد بن قلاوون واخوته .

ولم يعد الشعر في هذا العصر مقتصراً على فئة معينة بل أصبح شائعاً بين مختلف طبقات الشعب ، يتخذونه وسيلة للتسلية والتفكه والمتعة حيناً ، والجد والعمل حيناً آخر . فكان من أصحابه الوزراء والأمراء والقواد والفقهاء والقضاة والوراقون والكحالون والخياطون والدجالون والمجاورون والبزازون والخدادون والفخارون وسواهم من الحرفيين .

ولما كان الشعر في الغالب يعبر عن الأحاسيس والمشاعر ، فقد جاء شعر الكثيرين صادقاً في تصوير الحياة ، وأميناً في نقل دقائق الأحداث .

نظم الشعراء في مختلف الأغراض المعروفة كالمديح ، والرثاء ، والغزل والفخر والحماسة ، والهجاء والوصف ، والزهد والتصوف ، والمجون والخمريات ، والاخوانيات ...

وكان المديح من أبرز أغراض الشعر في العصور المتأخرة ، وقد غلب عليه التقليد ، لاسيما في المقدمات الغزلية المصنوعة ، ومثال على ذلك قصيدة صفي الدين الحلي في مدح ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون التي عارض فيها قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يقول في مطلعها (١) :

بأبي ، الشموسُ الجانحاتُ غواربا ... اللابساتُ من الحريرِ جلابيا

وقصيدة صفي الدين الحلي أولها(٢) :

أسبلنَ من فوقِ النهودِ ذوائباً ... فجعلنَ حيّاتِ القلوبِ ذوائباً

وجلونَ من صبحِ الوجوهِ أشعة ... غادرنَ فودَ الليلِ منها شائبا

وحينما يصل الى المديح يحشر صفات في غاية المبالغة ، توحي للقارىء انها غير صادقة ، والنظر الى الجيدة والحياة والحركة :

ترجى مواهبهُ ويرهبُ بطشهُ ... مثلَ الزمانِ مسالماً ومحاربا

كالليثِ يحمي غابتهُ بزئيره ... فإذا سطا ملأ القلوبَ مهابةً

كالسيفِ يُهدي للنواظرِ منظراً ... واذا سخا ملأ العيونَ مواهبا

كالبحرِ يُهدي للنفوسِ نفائساً ... طوراً ، ويُنشبُ في النفوسِ مخالبا

فإذا نظرتَ لدى يديه ورأيتهُ ... طلقاً ، ويُمضي في الهياجِ مضاربا

لم تُلفِ الاحشاءَ أو صالبا ... منه ، ويُبدي للعيونِ عجائباً

ويحدُّهُ قومٌ عذاباً واصبا (٣) ... عذباً واصلا

(١) شرح ديوان المتنبي ١ : ٨٨ .
(٢) ديوان صفي الدين الحلي ص ٩٥ .
(٣) الواصب : المرض . (٤) الصالب الأول : المطر ، الثانية : السعيد ، المصيب .

وتوجّه كثير من الشعراء الى مديح الأصدقاء ، والزملاء ، والفضلاء من أعيان الرجال والعلماء ، ولم يكن القصد منه الحصول على المال ، بل للوفاء والتعبير عن مشاعر الود والاخلاص .

وزها المديح النبوي في تلك الحقبة المائجة المائجة ، وكثر الاقبال عليه ، وعظم تعاطيه من أرباب القريض ، وراجت سوقه رواجاً مشهوداً ، بعد أن تضافرت له الدواعي والأسباب (١). وألفت فيه دواوين ، مثل «صحائح المدائح» لابن ابي الاصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) ، و «الضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة» لأبي الحسن يحيى بن عبد العظيم الجزار (ت ٦٧٩ هـ) و «بشرى اللبيب بذكرى الحبيب» لابن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤ هـ) و «منتخب الهدية في المدائح النبوية» لابن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ) و «فرائد الأشعار في مدح النبي المختار» لابن العطار الدنيسري (ت ٧٩٤ هـ) و «شفاء الكليم بمدح النبي الكريم» لابن عربشاه الدمشقي (ت ٩٠١ هـ) .

وكانت القالبة العظمى من قصائد المديح النبوي معهدة بأبيات ، قد تطول أو تقصر تخلص الى الغرض الأساس . وللشعراء مسالك شتى فيها ، وكان للغزل — بنوعيه المؤنث والمذكر — القدح المعلى ، والنصيب الأوفر ، فالغزل بالمؤنث لايختلف في شكله ومضمونه عن الغزل الحسي الذي يتناول وصف مفاتن النساء ومحاسنهن ، واقباظهن وادبارهن ، وغنجهن ودلالهن وما يعاني المحب من سهر وارق وقلق وتطار واشتياق . وهذا اللون من الغزل غالباً مانجده في مطالع القصائد التي تظمت معارضة لقصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير التي أنشدها بين يدي الرسول محمد — صلى الله عليه وسلم — واشهر من عارضها ، الصاحب شرف الدين الأنصاري (ت٦٦٢هـ) وعمر الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ) ، وشبيب بن جبيان (ت ٦٩٥ هـ) وشرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (ت ٦٩٥ هـ) ، واحمد بن عبد الملك

(١) ينظر بحثنا «المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية» مجلة آداب الرافدين — العدد ١٣ لسنة ١٩٨١ .

المزازي (ت ٧١٠ هـ) ، وابن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤ هـ) ، وابو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) ، وابن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ) ، وابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ) .

ولو أمعنا النظر في هذا الغزل لوجدناه — في الأعم الأغلب — قريب المأخذ سهل المعنى ، قليل التلاعب اللفظي ، تكلله هالة من العفة والطهر والرزانة ماشملا قصيدة أبي حيان الأندلسي ، اذ تجاوز هذا الشاعر الحد المعقول ، وأسرف في كشف مفاتن الحبيبة ، وبيان سحر أعضائها ، وأول قصيدته (١) :

لاتعذلاه ، فما ذو الحبّ معذول ... العقل مختبل والقلب مشغول
هزّت له أسمراً من خوط قامتها ... فما الذي الصبُّ إلاّ وهو مفتول

ومنها :

فالنحر مرمرة ، والثغر جوهرة ... والخدر جوهرة ، والريق معسول
والطرف ذو غنج ، والعرف ذو أرج ... والخصر مختطفٌ ، والمتن مجدول
هيفاء يرسفُ في الخضر الوشاح لها ... درماء تخسرس في السوداق الخلاخيل
من اللواتي غذاهنّ النعيم فما ... يتشقّقْنَ ، آباؤهنّ الصيد البهاليل

ويسترسل أبو حيان في هذا الغزل الحسي حتى يخلص منه الى مدح النبي محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو — كما مرّ — يتناول أجزاء الجسد وأقسامه ويعرضه للسامع وكأنه نخاس يعرض جارية للبيع في سوق الرقيق .

(١) ديوان ابي حيان الأندلسي ص ٤٦١ .

والمذهب الثاني في ابتداء القصائد المدحية هو التشبيب بالديار الحجازية وذكر معالمها ، أو الحنين اليها ، والتشوق الى ساكنيها ، والبكاء على قاطنيها ، ووصف الابل الضامرة ، وحديث السُّرى ، والمناهل والنباتات والمواضع التي تقع على امتداد الطريق ، والريح والبرق والرعد والغيث ، وكل الظواهر الطبيعية التي تراها العين ، ويعد البوصيري فارس هذا الميدان ، وبخاصة في قصيدته المعروفه بـ «البردة» التي مطلعها (١) :

أمن تذكّر جيرانٍ بذي سلمٍ
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدمٍ

وعارضها الكثيرون ، ونهجوا نهجها ، ومنهم من مدح الرسول من غير معارضة ، مثل عمر بن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) في قصيدة طويلة مطلعها(٢) :

آدر آحاديث سلسعٍ والخمسِ ، آدر
والهيج بذكر اللوى أو بانة العطر

لم يجد المسلمون من يحميهم ، ويدفع الضيم والعدوان عنهم ، وعجزت وسائلهم المادية الضعيفة عن دفع عوادي الدهر وخوائله ، فالتجأوا الى الرسول جاعلين التضرع والتوسل سبيلين الى النجاة والخلاص ، واتخذ بعض الشعراء من المدائح النبوية ذريعة للتحدث عن حال العرب بعد استبداد الأعاجم بمقاليد الأمور ، والسيطرة على مرافق الحياة الهامة ، من ذلك ماقاله الشاب الظريف (ت ٦٨٨ هـ) في احدى نونياته (٣) :

أرض الأحبّة من سفحٍ ومن كُثُبِ
سقاك منهمر الأنواء من كثبِ

ولا عدمت أهلك الناوين من نفسٍ ال
صبا نحية حاني القلب مكتئبِ

(١) ديوان البوصيري ص ١٩٠ .
(٢) ديوان ابن الوردي ص ٢٠١ .
(٣) ديوان الشاب الظريف ص ٥٦ .

قومٌ هم العرب المحضُ جارهم
فلا رعى الله إلا أوجه العربِ

أعزّ عندي من سمعي ومن بصري
ومن فؤادي ، ومن أهلي ومن نشبي

لهم عليّ حقوقٌ مذ عرفتهم
كأنتسبي بين أم منهم وأب

إن كان أحسن ماقي الشعر أكذبه
فحسن شعري فيهم غير ذي كذبِ

ياساكني طيبة الفيحاء هل زمنٌ
يدني المحبّ لنيل السؤل والأرب؟

أرضٌ مسح الله عين الشمس تحرسها
فإن تغب حرستها أعين الشهبِ

وكان شعر الرثاء من الأغراض البارزة في هذه الحقبة ، فإلى جانب رثاء الأحباب والأصحاب نجد رثاء للمدن الزائلة ، وبكاء على الدول البائدة(١) ، فهذا شاعر من بغداد اسمه شمس الدين محمد بن أحمد الكوفي (ت ٦٧٥هـ) يبكي على بغداد ، مهد العلم والأدب ودرّة الحضارة ، بعد أن فارقها على أمل العودة اليها ، واذا بيد التتر الباغية تضربها وتحيلها إلى خراب يباب ، فيأتيها ويرثيها بقصيدة حزينة ، تُعبّر عن صدق المعاناة تجاه المدينة المضروبة وقد ذكر في مطلعها صحبه وأصدقاءه الذين ودّعهم إلى غير رجعة ، وتمنى الموت بعدهم ، قال (٢) .

(١) ينظر «تقويم جديد لدور الأدب في العصر العباسي» بحث للدكتور نوري حمودي القيسي ، مجلة كلية الآداب — بغداد ، العدد ٢٢ ، سنة ١٩٧٨ .
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٢٣٤ .

إن لم تقرّح أدمعي أجفاني ـــــ من بعد بُعدهم فما أجفاني
إنسان عيني مذ تناءت داركم ـــــ مارا قتهُ نظرٌ إلى إنسان
ياليتني قد متُّ قبلَ فراقكم ـــــ ولساعة التوديع لا أحيا لي
مالي وللأيام شتّتَ صرفُها ـــــ حالي ، وخيّلاني بلا خلان

وتعجب الشاعر — بعد تطوافه ببغداد — من تبدل الوجوه ، وغياب الأهل والجيران ، وما حلّ بها بعدما جالت فيها معاول الهدم ، وألسنة النيران :

مالمنازل أصبحت لأهلها ـــــ أهلي ، ولا جيرانها جيراني
وسيانكم ماحلّها من بعدكم ـــــ غير البلى والهدم والنيران

ووقف مذهولا أمام الدار الخربة — وهي ليست وقفة الشعراء على أطلال محبوباتهم الظاعنات — وسألها عما دهاها وأصابها ، وكيف تحولت إلى هذه الحالة المؤلمة بعد عزّ ورخاء ، وقوة ومنعة :

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ـــــ ووقفت فيها وقفةَ الحيران
وسألتها ، لكنْ بغيرِ تكلمٍ ـــــ فتكلمت ، لكنّ بغير لسان
ناديتها : ياداز ماصنعَ الأولى ـــــ كانوا هم الأوطارَ في الأوطان
أينَ الذين عهدتهم ، ولعزهم ـــــ ذلاً تحيرُ معاقدَ التيجان
كانوا نجوم من اهتدى فعليهم ـــــ يبكي الهدى ، وشعائر الأيمان

فردت الدار على سؤاله بجواب لطيف ، إن أهوال الدهر وحوادثه أفقدتهم كما أفقدت دولة كسرى :

قالت : غدوا لما تبدّد شملهم ـــــ وتبدّلوا من عزّهم بهوان
أفنتهم غير الحوادث مثلما ـــــ أفنت قديماً صاحبَ الأيوان

لم يصف الشاعر في قصيدته المدينة المنكوبة تفصيلا ، وانما أشار الى ما أصابها من دمار وخراب اشارات عابرة ، وانشغل بوصف حزنه على فراق أحبابه ، وألمه الذي أصابه بعد نكبتها . ولم يستطع أن يتخلص — وهو

في موقف الحزن والاسى — من التزيين اللفظي والمعنوي — من الجناس والطباق ورد الصدر على العجز ...

لقد كانت النكبة التي حلت ببغداد عظيمة ، والفاجعة التي داهمتها كبيرة ، وقد قدر لشاعر آخر اسمه تقي الدين اسماعيل بن أبي اليسر التنوخي/ مسند الشام (ت٦٧٢هـ) أن يكون في عداد من شهدوا النكبة وعانوا من أهوالها ، فبكاها بقصيدة طويلة ، مطلعها (١) :

لسائلِ الدمعِ عن بغداد إخبار ـــــ فما وقوفك والأحباب قد ساروا؟!

يبكي الشاعر في قصيدته على بغداد ، وتأسف على كنوزها التي أصبحت نهباً وخيصاً بيد طائفة ظالمة لارحمة في قلوبها أفرادها ولا عطف ، وتألم للشباء الشريفات اللواتي دفعن الى الموت وهنّ في أزرى حالة . ورفع يده الى السماء راجياً من الله تعالى أن يُسلط على الأعداء عذابه وتقبيحه :

ناديت ، والسبي مهتوك يهرهم ـــــ إلى السقاح من الأعداء دعار
وهم يساقون للموت الذي شهدوا ـــــ النار يارب قبلاها ولا العار

ولسعدي الشيرازي (ت ٦٩١هـ) قصيدة جيدة في بضعة وتسعين بيتاً باللغة العربية رثى بها الخليفة المستعصم بالله ، وبكى بدموع غزار على بغداد حاضرة العالم الاسلامي آنذاك ، أولها : (٢)

حبست بعفي المدامع لاعجي ـــــ فلما طغى الماء استطال على السكر
تسيم سبا بغداد بعد خرابها ـــــ تمنيت لو كانت تمر على قبري
لأن هلاك النفس عند أولي النهى ـــــ أحبُّ له من عيش منقبض الصدر

ان الشعر الذي قيل في رثاء بغداد كثير (٣) ، ونجد مثله في رثاء المدن الشامية التي خربت بيد التتر . فهذا ملكها الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ٥١ ، شذرات الذهب ٥ : ٢٧٢
(٢) مجتبى وسعدي ص ٩٢.
(٣) تنظر قصائد الشعراء : محمد بن الحسين المعروف بابن الشروي ، وهاشوت بن عبد الله المستعصمي ، وعلي بن محمود بن مسعود النجاري (عيون التواريخ ص ١٤٠ — ١٤٢)

وكان شاعراً — يؤخذ سنة ٦٥٩هـ أسيراً مع جميع اقاربه وأتباعه ، وتضرب أعناقهم بالسيوف . وقد قال الأبيات الآتية حينما مروا به على حلب ، وهي خاوية على عروشها ، وألسنة النيران تعمل في بيوتها المهدمة (١) :

يعزّ علينا أن نرى ربعكم يبلى ... وكانت به آيات حسنكم تُتلى
أدور بعيني نحوكم في دياركم ... وأكثر فيها النوح كالفاقد الثكلى
أأحبابنا والله ماقلت بعدكم ... لنائبة الأيام رفقاً ولا مهلا

وبقيت آثار النكبة التي ابتلي بها المسلمون عامّة ، والعرب خاصة ، ماثلة للعيان إلى زمن طويل ، ولعل أكثرهم تأثراً بذلك ، هو علاء الدين عـلي الأوتاري (ت٧٢٤هـ) الذي نظم قصيدة طويلة حينما شاهد الخراب والدمار الذي خلفه التتر في دمشق ، أولها(٢) :

لك حلمٌ بما جرى ياسهادي ... من جُفوني على افتقاد رقادي
وحبيب العين ، الرقاد جفاها ... مذ رآها خليفةَ الأكبـاد

وهي قصيدة هزلة ، تنقل لنا مادهى الناس الآمنين في دمشق من قتـل ونهب وهتك ، وما أصاب الدور والقصور من هدم واحراق :

طرقتهم حوادث الدّهر بالقتـ ... ـل ونهب الأموال والأولاد
وبناتٍ محجباتٍ عن الشمـ ... ـس تناءتْ بهنّ أيدي الأعادي
وقصورٍ مشيّداتٍ تقضّـت ... في ذراها الأيام كالأعيـاد
وبيوتٍ فيها التلاوة والذكـ ... ـر وعالي الحديث بالإسناد
حرّقوها وخرّبوها وبـادتْ ... بقضاء الإله ربّ العبـاد

إنّ آثار هذا الغزو بقيت عالقة بالأذهان ، تثير بين الحين والآخر الأشجان والأحزان ، وعلى مرّ العصور والأزمان ، تهزّ الكارثة الشعراء كلما سمعوا

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ٤٦٨ .
(٢) نهاية الأرب ٥ : ٢٢٧

بها ، أو رأوا معالمها ، أو قرأوا حوادثها المثيرة ، ووقائعها المؤلمة (١) .

ومن الأغراض المهمة التي تطالعنا في شعر هذه الحقبة الغزل ، الذي أفرد له الشعراء القصائد والمقطوعات ، واستهلوا به النظم في فنونه المختلفة . ولما يلفت النظر في هذا اللون من الشعر عودة الضمير إلى المذكر ، وربما كان احتجاب المرأة ، وحجرها في دارها ، وعدم السماح لها بمخالطة الرجال ومجالستهم حتى المقربين منهم ، منع الشعراء التغزل بها صراحة ، حفظاً لسمعتها وخشية من أهلها ، فاتخذوا الغزل بالمذكر وسيلة يبوحون به لحبوبهم عن شوقهم ووجدهم بهن .

إن الغزل بالمذكر يتناول وصف الغلام في أعضائه ، كما توصف المرأة في قدها وخدها ونهدها ورديفها وثناياها وشعرها وعينيها ، حتى إن غنجها ودلالها ، ووصف الشعراء الوجد والهيام والترصد واللحاق ، كما وصفها المحبون في حب النساء ، وافتتانهم بحسن منظره ورواء وسحر طرفه ومبسمه ، كما يفتتن الرجل بالمرأة الجميلة الساحرة ، إنهم تغزلوا بالمذكر ، ولكنهم لم يتجاوزوا إلى المعاني المبتذلة التي نجدها عند أبي نواس وأبي الحسن الـلاهي والخبز ارزي وابن حجاج وابن سكرة الهاشمي . فهذا ابن نباتة الـمصري الإربلي (ت٦٦٠هـ) يبث شكواه من الحبيب الذي أصمّ أذنيه وكأنه لا يسمع بعد أن وقع أسير سجنه الذي لا يبرح عنه ، فالبغض سجيته والقسوة طبيعته ونجد نفد صبره وتزاحم وجده (٢) :

تذللتُ ، لو أنّ التذلّل ينفـ ... ـع ... وأفرطتُ في الشكوى لو أنك تسمع
وأبيـ ... ـي بغضوحي للحبيب سجيـ ... ـتي ... وهل ناقمي للحب أنّي أخضـ ... ـع

(١) يظهر بحثنا عن آثار الغزو المغولي في الأدب حلال القرنين السابع والثامن للهجرة المنشور في مجلة آداب الرافدين ، العدد ١٢ ، سنة ١٩٨٢ .
(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٠٤

ومن عجبي أني بحبك موجعٌ
وأنت بغضي والقطيعة موجع
نصيبك مني الحبُّ والوصل كلّه
ومنك نصيبي البغض والهجر أجمع
فؤادك مما بي من الشوق فارغٌ
وقلبي ملآنٌ من الحزن موجع
ووجدي وصبري في هواك كما لقيا
فوجدي مقيمٌ واصطباري مودع

والهجاء من الموضوعات التي تلقاها في هذا العصر ، والملاحظ أن بعضه يتناول الغرض وقذف المحصنات والسب والشتم الرخيص الذي تجنبه الأذواق ، وبعضه الآخر فيه شيء من الهزل والسخرية ، وتصوير المهجو بشكل مضحك ، أو نعته بنعوت مشينة في عرف المجتمع مثل الغدر والبخل والحمق وما شابه ذلك . يقال سليمان بن بنيمان (ت٦٨٦هـ) في هجاء الشاعر شهاب الدين التلعفري الذي قامر بثيابه وخفافه (١) :

ما رأينا ولا سمعنا بشيخٍ قبلَ هذا مقامرٍ بالخفافِ
يدعي نسبةً إلى آل شيبا نَ وتلكَ القبائلِ الأشرافِ
مثل لهدٍ لو استطاعتْ لقالتْ ليس هذا الدَّعيَّ من أكتافي
فابسُطِ العذرَ في هجاءٍ رقيعٍ عادلٍ عن طرائقِ الإنصافِ

لم يسمح — كما يدّعي — ولم ير مثل هذا الشيخ الذي قامر بكل شيء حتى خفافه التي تحميه من أذى الحفاء ، ويسخر من انتمائه إلى بني شيبان ، ويأنف من أن يكون منهم ، وهو رقيع مبتذل ، يستحق الهجاء .

وللوصف في شعر هذا العصر نصيب وافر (٢) ، وقد جاء قسم منه في

(١) فوات الوفيات ٢ : ٥٧
(٢) ينظر (اتجاهات الشعر العربي في العراق) ٢٧٦ — ٢٨٠ .

م/٣/أ.ع.م

قصائد ومقطوعات مستقلة ، وقسمه الآخر ضمن الأغراض الأخرى . ونلمح في أوصاف الشعراء ، لاسيما في وصف الطبيعة ، مزجاً بين المشاهد والمشاهد مثل قول صفوان بن ادريس (ت٦٩٨هـ) :

جاد الرُّبى من بانةٍ ابرعاءِ نوآن من دمعي وغيم سماءِ
ياليت شعري ، والزمان مُنقّلٌ والدّهر ناسجُ شدّةٍ برخاءِ
هل للتقي في روضة موشيّةٍ خفّاقةِ الأغصانِ والأفياءِ
وجرتْ ثغور الياسمين فقبلتْ عني عذارَ الآسة المرساءِ (١)

ومن الشعراء مَن وصف المدن الجميلة التي تحتضنها الطبيعة الخضراء الزاهية ، مثل قول عائشة الباعونية (ت٩٢٢هـ) في وصف مدينة دمشق(٢) :

نزّه الطرف في دمشق فقيهـــا كلما تشتهي وما تختـــار
هي في الأرض جنة فتأمّـــل كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر أشرقت من وجوهها الأقمار
وتناغيك بينهـــا صارخات عرست عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال وقصور مشيدة وديار

ويدعو سليمان بن بنيمان إلى شرب الخمرة في أحضان الطبيعة ، وطرح الهموم ، لأن الجو طاب بمجيء أيلول ، والكأس المترعة تحاكي الشمس في بريقها ، والبدر الجميل قد أسفر عن وجهه النير ، والأرض قد زهت بحلتها البديعة وهي معطرة بأزهارها الأنيقة (٣) :

اشرب ، فشربك هذا اليوم تحليل واتقِ الهمومَ فقد وافاك أيلول
أما ترى الشمس وسطَ الكأس طالعةً منيرةً وأنطاق البدر محلول

(١) مطالع البدور ١ : ١١٨ .
(٢) في الأدب الاسلامي ، فصول البغدادي ص ١٩
(٣) فوات الوفيات ٢ : ٥٨ .

له ذنبٌ مُرخىً طويلٌ يُقيمُه
يلفُّ به من كان في الناس يقتد

ومن الألوان الشعرية التي تلاقينا في دواوين الشعراء وكتب الأدب ، الفخر والحماسة اللذان قيلا زمن المعارك التي دارت بين المسلمين والتتر ، أو بين المسلمين والصليبيين ، أو بين الأسر الحاكمة كذلك ، مثل قول صفي الدين الحلي حينما قتل خاله وأخذ بثأره (١) :

سل الرماحَ العوالي عن معالينا
واستشهدي البيضَ هل خاب الرجا فينا

إنا لقومٌ أبتْ أخلاقنا شرفاً
أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا

بيضٌ صنائعنا ، سودٌ وقائعنا
خضرٌ مرابعنا ، حمرٌ مواضينا

لايظهر العجز منا دونَ نيل مُنىً
ولو رأينا المنايا في أمانينا

وهناك شعر في الخلاعة والمجون ، أقبل على نظمه فريق من الشعراء ، مزّقوا ستر العفاف ، وساروا في درب الغواية والرذيلة ، من هؤلاء علي بن عبد العزيز البغدادي (٢) (ت٦٨٤هـ) ، وشرف الدين بن اسد(٣) (ت٧٣٨هـ) أما شعر الزهد والتصوف فكان رائجاً ، وقد فزع الشعراء إلى ربهم ليكشف الله عنهم الكرب والبلاء (٤) . مثل قول صفاء الدين بن الحسن البغدادي المعمار (ت٧١٢هـ) :

(١) ديوان صفي الدين الحلي ص ٢٠
(٢) فوات الوفيات ٣ : ٣٤ .
(٣) كنز الدرر ٨ : ٣٩٢ — ٣٩٩.
(٤) ينظر الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٣٥٨ — ٤٣٨ ، الاتجاهات الشعر العربي في العراق من سنة ٦٥٦ حتى سنة ٩٠٠هـ ص ٧١—١٠٩.

والأرض قد كسيت بالخيش حلتها
وناظر الروض بالأزهار مكحول

لم يترك الشعراء شيئاً وقعت أعينهم عليه إلا وصفوه ، من ذلك قول أحدهم في وصف فانوس (١) :

انظرْ إلى الفانوس تلقَ متيماً
ذرفتْ على فقد الحبيب دموعُه

أحيا ليالية بقلبٍ مضرمٍ
ولعلهُ من تحت القميص ضلوعه

وقال شهاب الدين ابن الطيبي (ت٦٨٥هـ) في سبحة سوداء (٢) :

وسبحةٍ سودّة لونهُا
يحكي سوادَ القلب والناظر

كأنني عند اشتغالي بها
أعُدّ أيامكَ يا هاجري

ووصفَ أبوحيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) التمساح بقصيدة طويلة ، أولها(٣) ،

وخلقٍ غريبِ الشكلِ في مصرَ ناشيءٍ
وما هو في أرضٍ سوى مصرَ يوجد

هو السَّبُع العادي بنيلِ صعيدها
يقافص من للماءِ في النيل يقصد (٤)

ويخطفهُ خطفَ العُقابِ لصيدها
ويفصلهُ عُضواً فعضواً ويبرّد

وما من شُخوصِ النيلِ خلقٌ له يدٌ
ورجلٌ سواه وهو في البرِ يصعد

وربّما يلقى لدى البر كاسراً
ويجري كشلوِ الطرفِ أو هو أزيد

(١) الكشكول ٢ : ١١٠
(٢) فوات الوفيات ٣ : ٤٢٤
(٣) ديوان ابي حيان الاندلسي ص ١٥٠
(٤) القاصر : الذئاب والجمع .

توكل على الله جلّ اسمه ولا ترجون سواه تعالى
فكل امرئ يرتجي غيره لكشف الملمات يرجو المحالا(١)

وقول صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت٧٣٩هـ) :

لاترج غيرَ الله سبحانه واقطع عُرى الآمال من خلقه
لاتطلبنّ الفضلَ من غيره واضممْ يمامَ الوجه واستيقه
فالرزق مقسومٌ وما لامرئ سوى الذي قُدّر من رزقه
والفقر خيرٌ للفتى من غنى يكون طول العمر في رقّه(٢)

ونجد مثل هذه المعاني التي تدور في فلك الفضيلة ، وتدعو الى الاخلاق النبيلة ، في شعر الحكمة مثل قول عز الدين بن كمونة البغدادي (ت ٦٨٣هـ) :

صن العلمَ عن أهل الجهالة دائماً ولا تولهِ من لايكون له أهلا
فيورثه كبراً ومقتاً وشرّةً ويقلبه النقصان من عقله جهلا
فكن أبداً من صونه عنه جاهداً ولاتطلبنّ الفضلَ من ناقص اصلا(٣)

إن هذا اللون من الشعر أقرب مايكون الى النظم التعليمي ، وقلما يطول فيه نفس الشاعر ، وهو قليل الحظ من الجمال الفني والصياغة الجيدة (٤)

وثمة لون آخر شاع بين العامة والخاصة ، هو شعر الاحاجي والالغاز المخلوه وسيلة للتسلية والتلهية ، والرياضة الذهنية ، مثل قول أحمد بن عبد الملك المزاري (ت ٨٧١٠هـ) في القوس والنشاب (٥) :

ما عجوزٌ كبيرةٌ بلغت عم رأ طويلا وتتقيها الرجال

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤/٧ : ٧٣٥.
(٢) شذرات الذهب ٦ : ١٧١
(٣) تلخيص مجمع الآداب ٤/١/٥٩ .
(٤) ينظر اتجاهات الشعر العربي في العراق ص ٨٤ .
(٥) فوات الوفيات ١ : ٩٧ .

قد حلا جسمها صغار ولم يشـ لك سقاماً ولا حراها هزال (١)
ولها في البنين سهمٌ وقسمٌ وبنوها كبار قدْرٍ تبال
وبنوها لم يشبهوها ففي الأم مِ اعوجاجٌ وفي البنين اعتدال

إن شعر هذا العصر — كما لاحظنا — يتراوح بين مستويين متناقضين ، أحدهما — وهو قليل — رصين ، حافظ على الصناعة القديمة وراعى مقوماتها واصولها . وثانيهما — وهو الكثير — ضعيف ، ظهرت فيه هلهلة البناء والتركيب ، وافتقر الى الابداع والابتكار إن هؤلاء الكثرة لم يكونوا بالدرجة الكافية من المستوى اللغوي والادبي الذي كان عليه شعراء العصر العباسي أمثال بشار بن برد وأبي نواس والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري والشريف الرضي ... ومن هنا كان الضعف واضحاً في أساليبهم ، ومثال ذلك قول البوصيري من قصيدة طويلة رفعها الى الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم (٢) :

اليك أشكو حالتي ، انني عائلة في غاية الكثرة
أحدّث المولى حديثاً جرى لي معهم بالخيط والابرة
صاموا مع الناس ولكنهم صاروا لبطن أبصرهم عبره

فهذه الابيات تنطق بالضعف ، وتبرود العاطفة ، حتى بدت وكأنها حديث حادي من أحاديث العامة أو الشحاذين .

ونجد ضعفاً في أساليب الكثيرين الى جانب ضعف الالفاظ والتراكيب ، وقد جاء ذلك من عجزهم عن التصرف في اللغة تصرف المالك لزمامها ، المتمكن من دقائق أسرارها ، وقد أخفى بعضهم هذا الضعف بثوب الصناعة اللفظية والمحسنات البديعية ، ومما يلفت النظر أنهم كانوا يكثرون من استعمال ،

(١) الصغار : الذل .
(٢) ديوان البوصيري ص ١١٧ .

التورية ، ويدعون أنهم أول من تنبه الى روحها ، من ذلك قول سراج الدين الوراق (ت ٦٩٥هـ) في رجل اسمه عرفات (١) :

اطنبوا في عـــرفاتٍ فقـــــدوا ... يتعاطونَ له حســـــن الصفات
ثم قالوا لي : هـــل وافقتنـــا ... قلت : عندي وقفـــة في عرفات

ان هذا الشعر بعيد عن الطبع والذوق العربي الاصيل ، ومن أمثلة الشعر المتكلف المتقل بالجناس قول شهاب الدين التلعفري (ت ٦٧٥هـ) :

انت خالٍ مما يقاسيه قلبـــــي ... من غريرٍ له على الخدِّ خـــال
كلما عزَّ ، زادَ ذلّي وحالتْ ... لي فيه مـــــع الزمان الحال(٢)

وقول صدر الدين بن الوكيل (ت ٧١٦هـ) :

اعتبي على ما دهاني اعتـــــبي ... فاني بليت بظبـــــي أغـــــن
جنى إذ جنيت جنى وجنتيـــه ... فباللحظ يجني وباللحظ أجني(٣)

واعجب الصفدي ببيتين للشاب الظريف (ت ٦٨٨هـ) ، فيهما تلاعب بالجناس وهما :

بأبي معاطف واعيـــــــــــن ... يصول منها رامـــحٌ وتابـــل
فهـــذه ذوابلٌ تســـــواطـــــرٌ ... وهذه نواظـــرٌ ذوابـــــــل

قال : وهذا من أعلى طبقات هذا النوع ، لانه رد العجز على الصدر بألفاظه مع اختلاف المعنى ، وقلت أنا في هذا النوع :

أضياعٌ تسكي عـــذار مسكـــي ... فكيف تركـــــي لحاظ تـــركي
قد شـــك قلبي برمح قـــــــدٍّ ... قدٌّ فـــؤادي بغيـــــر شـــك(٤)

(١) حزانة الأدب الحموي ص ٣٤٧ .
(٢) الديوان ص ٣٢ .
(٣) تذكرة المختصر في أخبار البشر ٢ : ٣٧٨ .
(٤) الغيث المسجم ١ : ٢٠٣ . وينظر ديوان الشاب الظريف ص ٢١٤ .

ومن الكتابة قول شمس الدين الكوفي (ت ٦٧٥هـ) :

أسكنته ربعَ الغرامِ فيـــا له ... من ساكنٍ لايستطيع حراكا (١)

ومن الامعان في الصنعة ، والاغراق في التلاعب بالكلمات نقرأ أبيات ابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ) التي يتغزل فيها بالمذكر ، مستخدماً ألفاظاً مصغرة (٢) .

طريفي من لُيَيْـــلات الهُجير ... مقيـــريح الجُفَيْـــرين من السعير
ثويريُّ الخُـــديد كـــوى قلبي ... فصحت مـــن الحُريق أياثويري
مُسيبل الشُعَيْـــر حل كُفَيْـــل ... يذكرنـــا مُويجـــات البُحَـــير
حُويجبُه القُويس له سُهَيْـــم ... مُويضي في القُلَيْـــب بلاوتير
لثمت خُديده فجـــرى دميعي ... فيـــا أحلى الزُهيرَ على النُهير
رقيقٌ خصره ولـــه قُلَيْـــبٌ ... شديد قُسَيْـــوة مثـــل البُحير
شُهير وصيله عنـــدي بيـــوم ... ويوم هُجيرة مثل الشُهيـــر

كم أتعب ابن حجة الحموي نفسه في هذه الأبيات التي تفتقر إلى الحس الشعري ؟! وكم كدَّ ذهنه في ايجاد كلمات تلائم الوزن والقافية؟! إنه كما يبدو أراد أن يبين حذقه في التلاعب اللفظي ، وأراد بعضهم أن يضفي على شعره هالة من الحسن والبهاء والرفعة ، فالتجأ إلى القرآن الكريم واقتبس منه آيات وضمنها هذا الشعر ، مثل قول ابن نُباتة المصري (٣) (ت٧٦٨هـ) :

وأهيدبٍ حارتْ في القلوب لحاظُه ... وأسهرتِ الأجفان أجفانه الوسنى
أجلْ تظـــرأ في حاجبيه ولـــحظه ... تر السحرَ منه وقاب قوسين أو أدنى

والعبارة الأخيرة مقتبسة من آية كريمة في وصف رحلة الرسول — صلى الله عليه وسلم — في الاسراء والمعراج ، وما وصل اليه من التكريم

(١) فوات الوفيات ٤ : ١٠٣ .
(٢) الكشكول ٢ : ٣٧٨ .
(٣) الديوان ص ٥٣٤ .

والتعظيم في رحاب الله عزّ وجلّ، وفي كتابه. وهذا أمر يبعد عن الأبيات السابقة وفكرتها ،ولا يليق بمقام الله ورسوله أن تعقد الموازنة بهذا الشكل البعيد عن طبيعة الأشياء وأقدارها.

وأكثر الشعراء من اقتباس الحديث الشريف بأسلوب لايكاد يختلف عن أسلوب الاقتباس من القرآن الكريم من ذلك قول شهاب الدين التلعفري (ت٦٧٥هـ) مستخدماً مصطلحات في الحديث (١):

ولابترعّ الصبا يروي صحيحاً حديث رياضها، وبها اعتلال
منازل للصبا منازل شملي له فيها يمن أهوى اتصال

فقوله: «يروي صحيحاً» يشير إلى رواية الحديث الصحيح، وقوله: «بها اعتلال» إشارة إلى العلم الذي عرف بعلل الحديث، وهو واحد من العلوم المعروفة المتعلقة بدراسة الحديث واوجه صحته أو ضعفه وكيفية الثبت من ذلك بالطرق العلمية الصحيحة.

وكان للشعراء آنذاك ولع في الاقتباس من الأمثال. قال الصفدي معلقاً على المثل المشهور «سبق السيف العذل»: فقد استعمله الشعراء كثيراً، وأحسن مافيه مانقلته من خط السراج الوراق له (ت ٦٩٥هـ):

قلت اذ جرّد لحظي حدّه يُدني الأجل
ياعذولي كُفّ عني سبق السيف العذل

وقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي (ت ٦٨٠هـ):

ياخُصيّاً قد طاب لي منه الجنى وياغزالاً لذّ لي فيه الغزل
طرفُك قيل العذل قد أيادني فما احتيالي سبق السيف العذل(٢)

وعلى النهج نفسه كان اكثار الشعراء من تضمين مقاطع وأبيات لشعراء

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الغيث المسجم ٢: ٣٧٤ .

سابقين، وقد أشار الشاعر مجير الدين بن تميم (ت ٦٨٤هـ) الى ذلك: (١)

أطالع كلّ ديوان اراه ولم أزجُر عن التضمين طيري
أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري

ومن افتتان الشعراء في هذا العصر بالتضمين نسمع قول صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ) يخاطب ابن نباته المصري: (٢).

أفي كلّ يوم منك عتب يسوؤني
(كجلمود صخر حطه السيل من عل)
وترمي على طول المدى مُتجنياً
(بسهمك في أحشاء قلب مُقتل)
فأمسي بليل طال جنح ظلامه
(على بأنواع الهموم ليبتلي)
وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى
(اذا جاش فيه حتمه غلي مرجل)
تطير شظاياه بصدري كأنها
(بأرجائه القصوى أنابيش عنصل)
وسالت دموعي من همومي ولوعتي
(على النحر حتى بلّ دمعي محمل)
ترفق ولا تجزع على فائت الوفا
(فما عند رسم دارس من معول)

فأجابه ابن نباته بقوله:

عطفت ولاقي لم أقلت عانياً
(أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل)

(١) شذرات الذهب ٥: ٣٨٩ .
(٢) معاهد التنصيص ٤: ١٥٨ . وينظر ديوان ابن نباتة المصري ٣٩٢ .

بروحي ألفاظ تعرض حتفها
(تعرض أكناف الوشاح المفصل)
فأحييت وداً كان كالرسم عافياً
(بسقط اللوى بين الدخول فحومل)
تعنقني رياح المدل منك رقومة
(لما نسجتها من جنوب وشمأل)
نعم قوضت منك المودة وانقضت
(فيا عجباً من رحلها المتحمل)
أمولاي لا تسلك من الظلم والجفا
(بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل)
ولا تنس مني صحبة تصدع الدجى
(بصوبح وما الاصباح منك بأمثل)

وهي طويلة ، يقول في آخرها :

فدونك عتبي اللفظ ليس بفاحش
(اذا هي نصته ولا بمعطل)
وعادات حب من أكثهر فيلك من
(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)

فهاتان الصورتان الشعريتان تنطلقان عن التكلف المقيت في التضمين، والصنعة اللفظية التي أضفت على الأبيات ثقلاً، ومجافاة للطبع والذوق الأدبي إلى جانب الاخلال الواضح في المعنى، وعجز الشاعرين عن تحقيق التوازن بين الأفكار التي يعالجانها ويعبران عنها.

ولم يكتف شعراء هذه الحقبة بالاغراق في الصنعة وتقصد البديع ، وانما ذهبت عنايتهم بهذا الاتجاه الى ابعد حدود المبالغة في هذه الصنعة ، فكانت في أشعارهم ألوان اخرى من البديع مثل الجناس الغريب والملفق، والقصيدة

المعجمة والمهملة، والحروف الموصولة والمقطعة. والى جانب هذا فقد عرض الشعر في العصور المتأخرة اشكالا مستحدثة كالتأريخ، والتشجير، وذوات القوافي ، ومحبوك الطرفين ، والشعر الهندسي، وغير هذا كثير (١) .

(١) ينظر «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني» ص ١٦٩ — ٢٢٨ .

الفنون الشعرية المستحدثة :

الفصل الثاني

الفنون الشعرية المستحدثة

سارت فنون الشعر العربي في العصور المتأخرة في اتجاهين بارزين ، أحدهما محافظ في منهج القصيدة بناء ولغة وموسيقى ، وثانيهما مستحدث انبثق من البيئة الجديدة التي اختلطت فيها أجناس متباينة ، وثقافات متنوعة ، وعادات مختلفة ، وطبائع متميزة .

ومن أبرز الفنون الشعرية المستحدثة في هذه البيئة : هي : الدوبيت ، والموشح ، والزجل والمواليا ، والكان وكان ، والقوما ، والبند . ومن أوائل من اهتم بهذه الفنون ، ماعدا البند ، صفي الدين الحلي . قال (١) : «فاني كنت اضفت الى ديوان اشعاري فني الموشح والدوبيت لتحليهما بالاعراب ونسجهما على منوال لفظ الاعراب ، وأعريته من الفنون الأربعة التي لحنها إعرابها ، وخطأ نحوها صوابها ، وهي : الزجل ، والمواليا والكان وكان والقوما . فهي الفنون التي اعرابها لحن ، وفصاحتها لكن ، وقوة لفظها وهن ، حلال الأعراب بها حرام ، وصحة اللفظ بها سقام ، يتجدد حسنها اذا زادت خلاعة ، وتضعف صنعتها اذا ادخت من النحو صناعة ، فهي السهل الممتنع ، والأدنى المرتفع» .

ان ضعف المستوى اللغوي والثقافي في جزء كبير من المجتمع في العصور المتأخرة دفع الكثيرين من الشعراء الى النظم في الفنون السابقة ، وهي فنون لاتلتزم بعمود الشعر المعروف لاسيما مايتعلق بالأوزان ، واستخدام الألفاظ العامية ، ومخالفة القياس الصرفي او اللغوي ، خاصة في الزجل والمواليا والكان كان والقوما . وسنحاول شرحها وتوضيحها واتيان الأمثلة عليها .

(١) العاطل الحالي ص ٦ . ويظر المستطرف في كل فن مستظرف ٢ : ٢٣١ .

١-الدوبيت:

الدوبيت :

الدوبيت لفظ فارسي معناه «البيتان» ،(وهو قالب شعري ظهر في المشرق) مثل ظهور الموشح في الأندلس والمغرب.(وقد سماه العرب بأسم «الرباعي» لأنه مؤلف من اربعة مصاريع ج وسموا الواحدة منه رباعية، يراعى في الأول والثاني والرابع منها على الأقل قافية واحدة، ووزن الدوبيت هو: فعلن" مُتفاعلن" فعولن" فعلن" فعلن" متفاعلن" فعولن" فعلن"

ويطرأ على هذا الوزن زحافات كثيرة ج)ويتميز الدوبيت من غيره لتحليه بقواعد الاعراب وموازين الصرف ج

والدوبيت — كما يقول الدكتور مصطفى جواد(١) — من أوزان الشعر وفنونه الجميلة ج إن مخترعه أبو عبد الله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم الشاعر الفارسي السمرقندي الروذكي، منسوب الى روذك من نواحي سمرقند المتوفى سنة ٣٢٩هـ . وتبعه شعراء كثيرون ، وذاعت شهرة بعضهم، أمثال عمر الخيام(ت قبل سنة ٥٣٠هـ) وأوحد الدين المعروف بالأنوري (ت ٥٨٧هـ) ، وعبد الرحمن الجامي (ت ٨٩٨هـ) .

والتقل الدوبيت الى العراق والشام والبلاد العربية الأخرى ، وقد ذكر مصطفى صادق الرافعي (٢): «ان هذا النوع — أي الدوبيت — لم يكن في العربية قبل القرن السابع» ، وحجته في ذلك قوله : «لأننا لم نجده في شعر أحد قبل ذلك الزمن ، ولا وجدنا اشارة اليه،ولم نجد للشعراء ولعا به الا في اواخر تلك المئة وما بعدها». وهذا القول يجانب الصواب ، حيث أحصى الدكتور كامل مصطفى الشيبي نيفاً وعشرين شاعراً من القرنين الخامس والسادس نظموا في الدوبيت (٣).

(١) الرباعيات في الأدب العربي ، مجلة الغري ، العدد ١٥ لسنة ١٩٤٤ ، ص ٨٧٩— ٨٨٢ .
(٢) تاريخ آداب العرب ٣:١٧٢ .
(٣) ديوان الدوبيت في الشعر العربي ص ١٣٧ — ٢٠١ .

أما الدكتور ابراهيم انيس فيقول(١): «الحق ان هذا الوزن لم يشع شيوعاً كافياً في اللغة العربية حتى يصبح مألوفاً بين الناس، بل لم يرو ان شاعراً مشهوراً قد اختصه بنصيب وافر من شعره، ولهذا لم ترو له الا مقطوعات قصيرة قليلة، واغلب الظن ان الناظمين قد حاولوها للتفكه واظهار البراعة والمهارة في النظم من أي وزن،حتى ولو كان أجنبياً عن أوزان الشعر العربي» وهذا القول غير دقيق ، ومن يرجع الى ديوان «الدوبيت» الذي جمعه الدكتور كامل مصطفى الشيبي يجد عدداً ضخماً للدوبيتات ولشعراء معروفين أمثال شهاب الدين السهروردي ، والعماد الأصبهاني ، وابن النبيه المصري ، وفخيار الشاهوري ، وحسام الدين الخاجري ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، وشهاب الدين الدلعضري ، والشاب الظريف ، وابن دقيق العيد، وابن الوردي وصفي الدين الحلي، وابن حجة الحموي ، وبهاء الدين العاملي...

وكان الدوبيت وعاءً لعدد من أغراض الشعر ، فان العماد الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ) نظم ديوان شعر صغيراً لنور الدين محمود جمعيه دوبيتات في معنى الجهاد وصلت الينا منه نماذج قليلة مثل قوله(٢):

أقسمت سوى الجهاد مالي أرب ... والراحة في سواه عندي تعب
إلا بالجد لا يُنال المطلب ... والعيش بلا جد جهاد لعب

وله أيضاً دوبيتات على الحروف أغلبها في الغزل وصلت إلينا كاملة(٣).

ونظم فخيار الشاهوري (ت٦١٥هـ) ديواناً خاصاً في الدوبيت رآه ابن خلكان ونقل منه قوله (٤) :

الورد بوجنتيك زاهٍ زاهر ... والسحر بمقلتيك وافٍ موافر
والعاشق في هواك مثلي صابر ... يرجو ويخاف ، فهو شاكٍ شاكر

(١) موسيقى الشعر ص ٢١٧ .
(٢) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٧٩ .
(٣) نفسه ص ٤٥٩ — ٤٧٤ .
(٤) وفيات الأعيان ٤:٢٦٠ .

وللقاضي نظام الدين محمد بن اسحاق الأصبهاني (ت.٦٨٠هـ) ديوان بعنوان «نخبة الشارب وعجالة الراكب» فيه خمسمائة دوبيت ،منه قوله:(١)

قالوا: أفضحت عادة تهواها ماعذرك في افتضاح من تهواها؟
ماالحياة؟ ردع طيها يفضحني كالوردة تُصحب الصبا رياها!

وكان للغزل، وجواحي الغرام ،ولواعج الصبابة والهيام، نصيب كبير من هذا اللون من النظم ، مثل قول الشاب الظريف (ت٦٨٨هـ) :

قاسيت بك الغرام والهجر سنين مابين بكاء وأنين وحنين
أرضيك وما تزداد إلا غضباً الله — كما أبلى بك القلب — يعين(٢)

وقوله :

مالاح حسام الأيك في الأغصان الا وتزايدت بكم أشجاني
عودوا لعمري هجركم أسقمه فالصب بكم مضنى كئيب عاني(٣)

ومن جميل مانظم محمد بن محمد بن أحمد الكندي القوصي (ت٨٧٢٤هـ) قوله :

ياغاية منيتي ويا مقصودي قد صرت من السقام كالمفقود
ان كان بدت مني ذنوب سلفت هبها لكريم عفوك المعهود(٤)

واشتهر صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ) بنظم الدوبيت، وله كتاب مطبوع بعنوان «العاطل الحالي والمرخص الغالي» حوى فيه بفنون الشعر المستحدثة، ومن دوبياته اللطيفة:

خل تعلم مافقوله الأحرار في الدوح اذا ما مالت بها الأشجار

(١) ديوان الدوبيت في الشعر العربي ص ٢٩٩ .
(٢) ديوان الشاب الظريف ص ٢٨٠ .
(٣) نفسه ص٢٧٥ .
(٤) الطالع السعيد ص ٦٢٣ .

٢-الموشح:

ماالعيشة الاّ ساعة ذاهبـــــة لاتبخل إن سخت بها الأقدار(١)

وكان للمتصوفة المتأخرين حظ وافر من نظم الدوبيتات ، منهم أبو عبد الله محمد بن علي اليمني (ت٩٣٢هـ)، قال:

تخريد الورق في الدجى أرقني لما باتت تشدو بأعلى الفنن
ياليل سكن أشكو اليه شجني حسبي ربي إن رمت شكوى المزن(٢)

وقال فضولي البغدادي (ت٩٢٣هـ) :

الحمد لمن أنار قلبي وهداني والشكر لما فيه من الشوق بدا
ماأمدح واهباً سواه أبـــــداً لا أشرك في ثنائه ربي أحدا (٣)

الموشح :

لون من ألوان الكلام المنظوم، ظهر في الاندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة، اخترعه محمد بن محمود القبري الضرير كما يرى ابن بسام (٤)، أو مقدّم بن معافر القبري في رواية ابن خلدون، (٥) وهو يختلف عن القصيدة فمن حيث الوزن تتفق الموشحات المنظومة بالفصحى في معظمها مع أوزان الخليل المعروفة، ولكنها قد تخرج في نماذج أخرى عن هذه الاوزان، لاسيما اذا كانت منظومة بالعامية أو مايقرب منها في إيثار التسكين في عباراتها. وكذلك تخالف الموشحات قصائد الشعر بخروجها على مبدأ القافية الواحدة واعتمادها جملة من القوافي المتناوبة والمتناظرة وفق نسق معين، واحتواء بعض أجزائها، خاصة المخاتمة على العامية الدارجة .

كانت الموشحات في الاندلس ثمرة حياة الغنى والرخاء ، تلك الحياة

(١) ديوان صفي الدين الحلي ص ٤٥٠ .
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص ١٨٧ .
(٣) كليات ديوان فضولي ص ٢٣٨ .
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١ : ٤٦٩ .
(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ .

م/٤/أ.ج..

التي جنح الناس فيها إلى الترف واللهو والموسيقى والغناء والطرب إلى جانب روح التجديد التي سادت في المجتمع الذي تظلله حرية القول والعمل والحركة والابداع ..

لم يعرف المشرق — وان كان مهد القصيد — الموشح الا في عهد متأخر ذكر أحمد الباحثين أن الموشح نقل إلى المشرق في أخريات القرن السادس للهجرة (١) ، وذهب آخر إلى أن ابن سناء الملك أول من أدخل هذا الفن (٢) إلى المشرق .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الموشحات انتقلت إلى المشرق بوساطة رحلات العلماء والادباء والفقهاء في نهاية القرن الخامس للهجرة ، وبدأ الشعراء بالنظم على غرارها في مطلع القرن السادس للهجرة ، وكانت مصر السباقة إلى ذلك ، لاسيما الاسكندرية ، ومن أبرز الشعراء الذين وصلت إلينا نماذج من موشحاتهم : علي بن حماد الاسكندري (٣) (ت٥٥٢٦هـ) وظافر الحداد الاسكندري (٤) (ت٥٥٢٩هـ) وابن قلاقس الاسكندري (٥) (ت٥٥٦٧هـ) وموسى بن علي الاسكندري (٦) (ت٥٥٧٢هـ) .

وقد حاول المشارقة تقليد اسجاب الموشحات الاندلسية وحفظها — أن يظهروا مقدرتهم وكفاءتهم في هذا الفن الجديد ، فنظموا فيه ، وأجادوا أيما إجادة ، وغيروا بعض صوره ، وجددوا في ألوانه . وكان ابن سناء الملك (ت٦٠٨هـ) أحد المعنيين به ، وله كتاب «دار الطراز في عمل الموشحات» وقد أورد فيه موشحات أندلسية إلى جانب موشحات من نظمه ، وكأنه

(١) الأدب في العصر المملوكي ١ : ٣٠٦ .
(٢) مقدمة دار الطراز في عمل الموشحات ص ١٠ .
(٣) الخريدة ، قسم مصر ، ٤٤١٢ .
(٤) ديوان ظافر الحداد ص ٣٣٤ ، ٣٣٨ .
(٥) ديوان ابن قلاقس ٨١ : ١
(٦) الخريدة ، قسم مصر ، ١١٣١٢ .

أراد أن يثبت مقدرته فيه وتفوقه على أقرانه المغاربة ، ومن محاولاته في هذا التفوق زيادة عدد أجزاء الموشح ، لاسيما في الاقفال ، حيث أوصلها إلى أحد عشر قفلاً في الموشح الواحد ، وقد كان العدد المعروف في الموشح الاندلسي لايكاد يتجاوز سبعة أقفال .

ومضى الموشح المشرقي نحو الازدهار والتطور ، وكثر عدد الوشاحين ، نذكر منهم على سبيل المثال : ابن الدهان الموصلي (١) (ت٥٨٦هـ) وأبا عثمان البُلَطي الموصلي (٢) (ت٥٩٩هـ) والقاسم بن القاسم الواسطي (ت٦٣٦هـ) وداود بن عيسى الايوبي (ت٦٥٦هـ) وابن زيلاق الموصلي (ت٦٦٠هـ) وأيدمر المحيوي (ت٦٧٤هـ) وشهاب الدين التلعفري (ت٦٧٥هـ) وتقي الدين عبد الله بن علي السروجي (ت٦٩٣هـ) وأحمد بن عبد الملك العزازي (ت٧١٠هـ) وابن دانيال الموصلي (ت٧١٠هـ) والسراج المحار الحلبي (ت ٧١١هـ) وصدر الدين بن الوكيل (ت٧١٦هـ) وابن الملحمي الواعظ الواسطي (ت٧٤٤هـ) وصفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ) وابن نباته المصري (ت٧٦٨هـ) ....

وتنقسم الموشحات بشكل عام من ناحية الاوزان إلى قسمين ، فمنها ماجاء على أوزان أشعار العرب ، ومنها ما لاوزن له ، وهو كما يقول ابن سناء الملك (٣) «الكثير والجم الغفير ، والعدد الذي لا ينحصر» . والشارح الذي لا يتضبط وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دفتراً لحسابها وميزاناً لأوتادها وأسبابها ، فعزّ ذلك وأعوز لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف» . وقد حاول المستشرق الالماني « هارتمان » في دراسة له ارجاع أوزان الموشحات إلى ١٤٦ وزناً أو بحراً مشتقة من بحور الشعر العربي الستة عشر .

(١) قال عنه ديوانه : «هو أول شاعر شرقي عراقي نظم الموشحات حسب استقرائنا للشعر العربي في الشرق ، وحبب بها الموصل اليه الرحيل» ص ٢٧٠ .
(٢) ينظر مقالنا «أبو الفتح البلطي الموصلي» ، مجلة الجامعة ، العدد ٩ ، السنة ١٩٧٨ .
(٣) دار الطراز في عمل الموشحات ص ٤٧ .

غير ان هذه المحاولة تتسم بالتكلف في بعض جوانبها ، اذ هنالك موشحات تشذ عن الاوزان التي ذكرها هارتمان ولا تخضع لها (١) .

لقد كانت الموشحات الأندلسية تتراوح بين الفصحى والعامية ، وقد تساهل عدد من الشعراء في هذه اللغة طالما كانوا يبغون إرضاء الأذواق العامة كما كانت ترضي الأغاني الشعبية هذه الأذواق . أما الموشحات المشرقية فكانت في الغالب تدور — وان لم تخل من اللحن — في تلك الأوزان العربية المعروفة ، ويحسن بنا أن نورد هنا موشحة لتقف على تعاريف أجزائها . قال (أحمد بن عبد الملك العزازي) (٢) :

ياليلةَ الوصلِ وكأسَ العُقارْ دونَ استتارْ علمتماني كيف نصنع العذارْ
اغتنم اللذات قبلَ الذهابْ وجرِّ أذيالَ الصبا والشبابْ
وأشربْ ، فقد طابتْ كؤوس الشرابْ على خدودٍ تُشبِهُ الجلنارْ ذاتِ احمرارٍ طرزها الحسن بآس العذارْ (٣)
الراح لاشكَّ حميّاة النفوس فحبّذا منها عاطلاتِ الكؤوس واستجلها بينَ النداماى عبروس تجلّى على خُطّابها في إزارْ من النُّضارْ حبّابُها قامَ مقامَ النثارْ (٤)
أما ترى وجنةَ النهار قد بدا وطائرَ الأشجار قد غرّدا

(١) في الأدب الأندلسي للدكتور جودة الركابي ص ٣٠٧ .
(٢) النهل الصافي ١ : ٣٤٤ ، فوات الوفيات ٢ : ٩٨ ، عقود اللآل في الموشحات والأزجال ص ٢٣ .
(٣) العقار : الخمر ، جلنار : نبات من نبات الحياء ، يضرب بلونه المتهلك في حمرته .
(٤) النضار : الذهب ، الحباب : ما يعلو سطح الماء والكأس من الفقاعات . النثار : ما ينثر للعروس .

والروض قد وشّاه قطر الندى فتكمل اللهو بكأسٍ تُدارْ حلّ افتزارْ مباسم الثُّوار غب القطارْ (١)
فاجن بالوصل ثمارَ الهنا وواصل الكأسَ بنا أمسكنا مع طيّبِ الريقةِ حُلوِ الجنى بمقلة أفتك من ذي الفقار ذاتِ احورار منصورة الاجفانِ بالانكسارْ (٢)
زار وقد حلّ عقودَ النجف واقتصرَ عن ثغر الرضا والوفا فبقلت والوقت لنا قد صفى باليمنة أنعم فيها وزارْ شمس النهار حُيّيت من دون الليالي القصارْ

أجزاء الموشحة :

المطلع : اذا افتتح الموشح به سمي تاماً ، وان لم يستهل به سمي أقرع أي ليس في رأسه شيء ، وموشحة العزازي السابقة تامة .

القفل : وهو يشبه المطلع في الوزن والقافية . والاقفال ليس لها عدد محدد ، ولكن أغلب الموشحات لها خمسة أقفال ، والقفل الواحد يتركب من جزأين فأكثر الى ثمانية أو عشرة ، وقد أوصله ابن سناء الملك الى أحد عشر .

الغصن : وهو القسم الواحد من المطلع والقفل والشرجة ، وقد يكون جزأين ، أو ثلاثة كما في موشحة العزازي ، وقد يكون أربعة .

الدور : ويأتي بعد المطلع اذا كان الموشح تاماً ، أو مباشرة اذا كان

(١) افتر : ضحك ، يقال : افتر ضاحكاً إذا أبدى أسنانه . النوار : الزهر ، أو الأبيض منه . القطار : جمع قطر أو قطرة ، يريد بعد المطر .
(٢) ذو الفقار : سيف السيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الموشح أفرع ، والحد الادنى له ثلاثة أقسام ، وقد يكون أربعة أو خمسة ولايتجاوز ذلك الا نادراً .

السمط : وهو القسم الواحد من الدور ، ويكون مفرداً كما في موشحة العازري ، أو يكون من قفلين أو ثلاث أو أربع .

البيت : وهو الدور مع القفل الذي يليه (١) .

ومن أبرز مايلاحظ في الموشح المشرقي التطور في الاغراض التي عالجها فالى جانب الغزل والمجون والخمر والمديح والهجاء والرثاء نجد موشحات في التصوف ، والمراسلة بين الادباء أو مايعرف بالاخوانيات.

أما من الناحية الفنية فان الوشاحين المشارقة أغرقوا في ضروب البيان والبديع ، لاسيما التورية ويذكر المؤرخون أعلاماً في فن التوشيح عرفوا باستعمالهم التورية ، منهم ابن نباتة المصري الذي أبدى براعة في استعمالها وتفنن في تحقيق الانسجام بين اللحن والغناء من جهة ، وبين الفاظ الموشحة من جهة أخرى (٢) .

لقد بقي المشارقة حاملين لواء التوشيح بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ. وتفننوا في الفاظه ومعانيه وصوره ، وصاروا يعنون به في مجالس لهوهم وفرحهم ، وأثر ذلك عنهم ، وصار مستعملا شائعاً الى عهد قريب .

الزجل :

ولد الزجل في الاندلس في أواخر القرن الرابع للهجرة ، ونشأ فيها ، وتطور على أيدي زجالة مشهورين ، ولعل من أبرز من أسهم في افرازه من التوشيح في القرن الخامس الزجال المشهور أنيطل بن نمارة ، حتى اذا جاء القرن السادس للهجرة ، بلغ الزجل عصره الذهبي على يد أبي بكر بن قزمان (ت ٥٥٤هـ) شيخ صناعته وامام فنه ، ثم استمر تطوره في القرن

(١) ثمة اختلاف بين الباحثين في هذه التسميات ، فبعضهم يسمي الدور بيتاً .
(٢) ينظر «ابن نباتة المصري أبو شعراء المشرق» ص ٣٣٧ ، ٣٣٧ .

٣-الزجل:

السابع للهجرة ، خاصة فيما يتعلق بجنوحه نحو التصوف والزهد بسبب ماحاق بالاندلس من المحن والمصائب والنكبات والنوائب .

وانتقل الزجل الى المشرق ، ودخل مصر قبل غيرها بحكم قربها من المغرب ، ثم انتقل الى الاقطار العربية الاخرى ، لاسيما الشام والعراق . واول من عني به من المشارقة الشاعر المشهور «صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) اذ جعله في مقدمة الفنون الشعرية غير المعربة في كتابه «العاطل الحالي ، والمرخص الغالي» وتابعه في هذا المجال تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) في كتابه «بلوغ الامل في فن الزجل» .

قال صفي الدين الحلي في مكانة الزجل بالنسبة الى الفنون الاخرى (١) . «هو أرفعها رتبة ، واشرفها نسبة ، واكثرها أوزاناً ، وارجحها ميزاناً ، ولم تزل الى عصرنا هذا أوزانه متجددة ، وقوافيه متعددة ، ومبتكروه أهل المغرب ، ثم تداوله الناس بعدهم ، والزجل في اللغة «الصوت» يقال سحاب زجل" اذا كان فيه الرعد ، ويقال لصوت الاحجار والحديد والجماد أيضاً زجل" .

وهذا الفن بعيد عن الاعراب ، يغلب عليه التسكين ، ويصلح للغناء ، وينظم على بحور الشعر المعروفة الى جانب بحور أخرى ابتدعها الزجالة والشائع فيه أن يكون البيت من أربعة أشطر أو مصاريع الثلاثة الاول من روي معين والرابع من روي متغاير له . ولكنه ملتزم في كل شطر رابع في القصيدة ويشيع التجانس عادة في القوافي الثلاث الاول ، وقد ينظم الزجل أقفالا ، ولايزيد القفل الواحد عن بيتين في الغالب ، وربما يكون للبيت روبان ، أحدهما للصدر والآخر للعجز ، وقد تسوده قافية واحدة(٢) راج سوق الزجل في مصر ، وكثر الاقبال عليه ، ومن المشهورين فيه

(١) العاطل الحالي ص ٩ .
(٢) ينظر علم القافية للدكتور صفاء خلوصي ص ٥٤ .

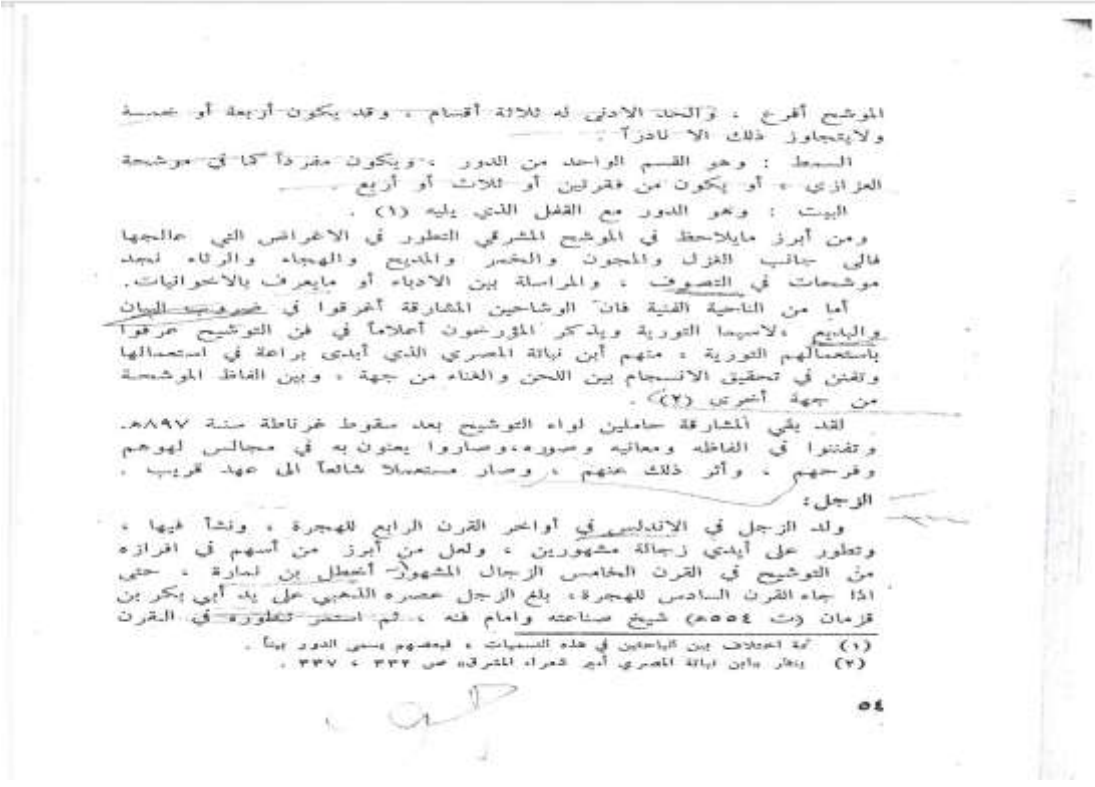

الموشح أفرع ، والحد الادنى له ثلاثة أقسام ، وقد يكون أربعة أو خمسة ولايتجاوز ذلك الا نادراً .

السمط : وهو القسم الواحد من الدور ، ويكون مفرداً كما في موشحة العزازي ، أو يكون من قفلين أو ثلاث أو أربع .

البيت : وهو الدور مع القفل الذي يليه (١) .

ومن أبرز مايلاحظ في الموشح المشرقي التطور في الاغراض التي عالجها فالى جانب الغزل والمجون والخمر والمديح والهجاء والرثاء نجد موشحات في التصوف ، والمراسلة بين الادباء أو مايعرف بالاخوانيات.

أما من الناحية الفنية فان الوشاحين المشارقة أغرقوا في خروجهم البديع ، لاسيما التورية ويذكر المؤرخون أعلاماً في فن التوشيح عرفوا باستعمالهم التورية ، منهم ابن نباتة المصري الذي أبدى براعة في استعمالها وتفنن في تحقيق الانسجام بين اللحن والغناء من جهة ، وبين الفاظ الموشحة من جهة أخرى (٢) .

لقد بقي المشارقة حاملين لواء التوشيح بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ. وتفننوا في الفاظه ومعانيه وصوره ، وصاروا يعنون به في مجالس لهوهم وفرحهم ، وأثر ذلك عنهم ، وصار مستعملا شائعاً الى عهد قريب .

الزجل:

ولد الزجل في الاندلس في أواخر القرن الرابع للهجرة ، ونشأ فيها ، وتطور على أيدي زجالة مشهورين ، ولعل من أبرز من أسهم في افراده من التوشيح في القرن الخامس الزجال المشهور أحمطل بن نمارة ، حتى اذا جاء القرن السادس للهجرة ، بلغ الزجل عصره الذهبي على يد أبي بكر بن قزمان (ت ٥٥٤هـ) شيخ صناعته وامام فنه ، ثم استمر تطوره في القرن

(١) ثمة اختلاف بين الباحثين في هذه التسميات ، فبعضهم يسمي الدور بيتاً .
(٢) ينظر ابن نباتة المصري أبو شعراء المشرق ص ٣٣٢ ، ٣٣٧ .

شرف الدين بن أسد (ت ٧٣٨هـ) ، التقى به صلاح الدين الصفدي بالقاهرة فقال عنه (١) : «رأيته غير مرة بالقاهرة ، وانشدني له شعراً كثيراً من البدائع (٢) ، والأزجال والموشحات ، وغير ذلك ، وكان عامياً مطبوعاً ، قليل اللحن يمتدح الأكابر ، ويستعطي الجوائز» . ومن أزجاله اللطيفة قوله :

يامالك الحسن أرقّ بالمستهام العليل
حياتُه قربك ولكن مايلتقي له سبيل
عُدّام حسنك كثير هُمْ رسيحان من صورك
وصفُك جميل ووجهُك صبيح ما أزهرك
يا قوت وجوهر بشغر دريحان عذارك شرك
كافور خدّك وعنبر خالك أهاجوا الغليل
بمهلجني يامعيشتي وصيروني ذليل
سعيد مسرور مرشّد رشيد من قدّرك
مُقبل عليه بعد هجرك محسن اليه بلقاك
مختص بالوصل منك فايز بمفتاح رضاك
يا نصر قلب المعنّى مغيث كربي قليل
مالي شفيع عند حسنك غير البكا والعويل
مسرور قلبي إذا ما أتى بشير البرطيل
والملك في إقبال يا فاز وأنرك جميع مامضى
وأركب المسرّة وأسلك وسيع الفضا

(١) فوات الوفيات ٢ : ١٠٠ .

(٢) البدائع : مفردها بديعة ، وهي مناظرة زجلية ، لكنها أختلفت عند المصريين عن الزجل في موضوعها إذ اقتصرت على الموضوعات الخفيفة السائرة ، الفكاهية ، أو الساخرة ، وغالباً ما تكون اوزانها خفيفة على السمع واللسان (الأدب في المصر المملوكي ٢ : ٣١٩)

وأصبح بقربك مفلح ، وبافتخاري أميل
نجاح أمري في شربة من ريقك الساسبيل
صواب رأيي في عشقك يا أحسن العالمين
دينار منقوش حسنك ظهير ، عزيز عن يقين
مثقال من بعض عشقي يرجح على العاشقين
فاخر بحسنك يامحفوظ ، أي ماعليح لك مثيل
طرقك منير ، وشعرك سنبل وخدك اسيل
قدّك رشيق ، وحبّك مختار دون الأنام
ثغرك عبير وصندل ، والوجه بدر التمام
بلال أذّن بخدّك : استيقظوا يا نيام
فالراح في الكأس تجلى مع ظبي أغيد كحيل
واستغنموا لذّة العيش فالعمر ماهو طويل(١)

ومن برع في نظم الزجل أيضاً في الديار المصرية ابن النبيه المصري (ت ٦١٩هـ) ، والوزير محمد بن محمد بن علي (ت ٧٠٧هـ) ، وعبدالملك ابن الأعز الفقي (ت ٧٠٧هـ) ، ومحمد بن عمر المعروف بابن المرحل (ت ٧١٦هـ) ، وابراهيم الحالك المعمار (ت ٧٤٩ هـ) .

وسرحان ماانتقل الزجل الى الشام ، واستساغه العامة والخاصة ، وعبروا به عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، وكثر عدد الزجالة ، ومن أشهرهم شهاب الدين أحمد بن عثمان الأمشاطي (ت ٧٢٥هـ) ، وعلي بن مقاتل الحموي (ت ٧٦١هـ) ، وابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) .

لقد نظم الأدباء الزجل الى جوار القصيد واستشهدوا به في تآليفهم ، حتى ان الشيخ شمس الدين بن الصائغ (ت ٧٧٦هـ) أورد في شرحه لبردة البوصيري الذي سماه «رقم البردة» شيئا من محاسن أزجال عصره . قال

(١) كنز الدرر وجامع الغرر ٨ : ٣٩٣ .

ابن حجة الحموي (١): «ورأيت الشيخ شمس الدين بن الصائغ — رحمه الله — قد استشهد في شرح البردة الذي سماه بـ «الرقم» بغالب أهل عصره فيما عرض من أنواع البديع حتى أورد لهم شيئا من محاسن الزجل».

ووصل الزجل الى العراق ، واقبل عليه الشعراء ، ونظموا فيه. قال صفي الدين الحلي (٢): «ولأهل بغداد دون المشارقة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم ، وجرّي ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم كالإمالة والإدغام وتبديل حرف بآخر للتحسين ، وغير ذلك ، لايشاركهم فيها مشارك».

واشتهر عدد من الشعراء العراقيين في نظم الزجل ، ولم يتورع بعضهم من الأخراق في المجون والخلاعة والتهتك ، مثل تقي الدين علي بن عبد العزيز البغدادي (ت ٦٨٤هـ) ، قال عنه ابن شاكر الكتبي (٣): «كان من أظرف خلق الله تعالى ، وأخفهم روحاً».

ولصفي الدين الحلي أزجال لطيفة حاكى في بعضها أزجال المصريين والشاميين ، من ذلك قوله في مدح الملك الصالح شمس الدين بن غازي بن أرتق صاحب ماردين (٤):

أنت ياقبلة الكرام زينة المال والبنين الله يُعطيك
فوق ذا المقام
ويُحييك عيشي السنين
أنت شامه بين الأنام الله يحرس شمالك
ويؤيدك بالدوام تاعيش في فواضلك

(١) حزانة الأدب لابن حجة الحموي ص ٥ .
(٢) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١٢ .
(٣) فوات الوفيات ٣:٣٢ .
(٤) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١١٣ ، المستطرف في كل فن مستطرف ٢:٢٣٨ ، وينظر الدور الأدبية غير العربية ، الزجل في المغرب ص ٨٧ .

وتا نطوي ذكر الكرام لما تنشر فضائلك
ونهنيك بكل عام
والخلائق تقول آمين

وفي الخاتمة يقول :

لاعدمنا في كل سوم ذا الشحور فيك وذا الهنا
كل ليله وكل يوم تنشر الشكر والثنا
الله يُحييك بين خير قوم بالبخ القصد والتنى
حتى تقضي فرض الصيام
بين ولدان وحور وعين

الموالية :

اختلف الدارسون في نشأة فن الموالية ، فقال بعضهم (١): ابتدعه اهل واسط . وقال آخرون : اخترعه اشياخ البرامكة وأبناءهم بعد نكبتهم ، فقد حرم عليهم الرشيد رثاءهم باللغة الفصحى . فراحوا يرثونهم وينوحون عليهم بلغة غير معربة ، أي بما يشبه العامية ، وينهون مقاطعهم بعبارة «يا موالياه» فعرف هذا اللون بالموالية ، ولعل ذلك من ازيداد الشعوبيين الطين حز عليهم مصرع البرامكة . وقيل : ان سبب التسمية موالاة قوافيه بعضها بعضاً (٢).

وللموالية وزن واحد ، هو بسر البسيط ، ويتكون من أربعة مصاريع متشابهة الأواخر متاكدة الروي ، والدين ينظمونه يسمون بالموالية ، وهم لايلتزمون فيه ضوابط اللغة العربية من حيث الاعراب .

وقد أشار ابن خلكان الى طبيعة هذا الفن وطريقة نظمه فقال (٣): «ألم

(١) ينظر «العاطل الحالي والمرخص الغالي» ص ١٣٢ — ١٤٨ .
(٢) علم القافية ص ٨٧ ، الأدب في بلاد الشام ص ٥٧٩ .
(٣) وفيات الأعيان ١:٥٩ .

٤-المواليا :

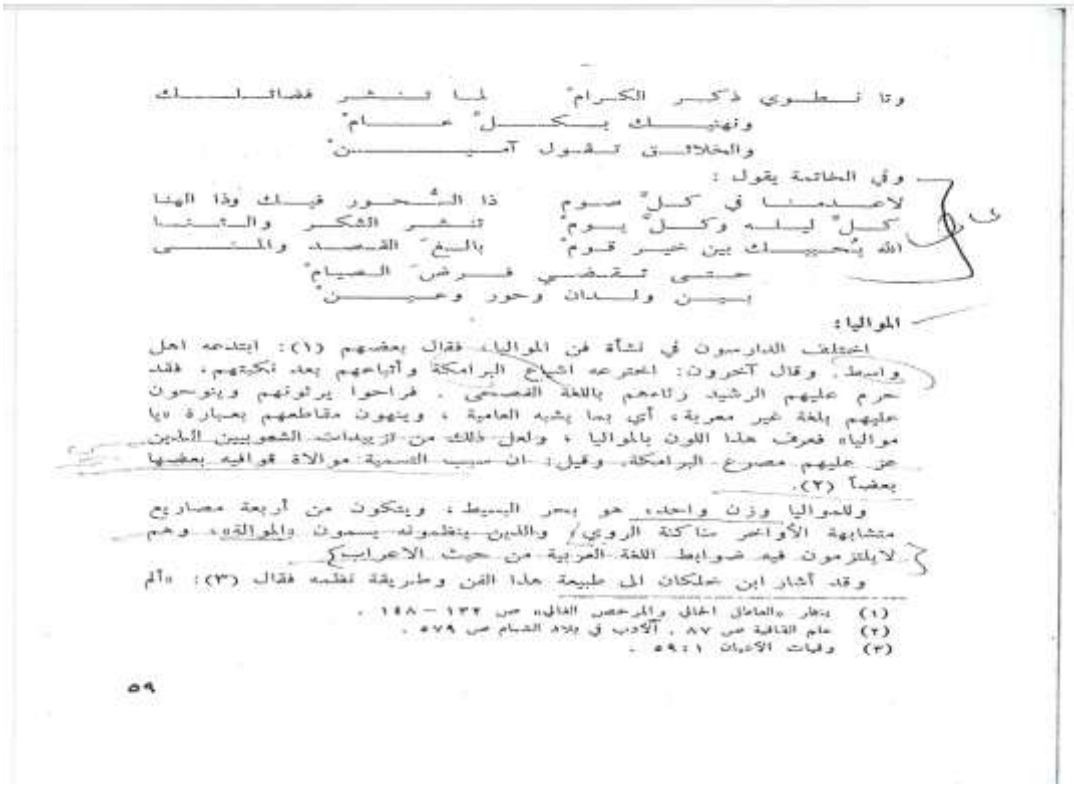

وتا نطوي ذكر الكرام لما تنشر فضائلك
ونهيك بكل عام
والخلائق تقول آمين

وفي الطائمة يقول :

لاعدمنا في كل سوم ذا السحور فيك وذا الهنا
كل ليله وكل يوم تنشر الشكر والثنا
الله يحييك بين خير قوم بالبر القصد والتقى
حتى تقضي فرض الصيام
بين ولدان وحور وعين

المواليا :

اختلف الدارسون في نشأة فن المواليا، فقال بعضهم (١): ابتدعه اهل واسط. وقال آخرون: اخترعه اشياخ البرامكة وأتباعهم بعد نكبتهم، فقد حرم عليهم الرشيد رثاءهم باللغة الفصحى . فراحوا يرثونهم وينوحون عليهم بلغة غير معربة، أي بما يشبه العامية ، وينهون مقاطعهم بعبارة «يا مواليا» فعرف هذا اللون بالمواليا ، ولعل ذلك من ازيداد الشعوبيين الطين حز عليهم مصرع البرامكة. وقيل: ان سبب التسمية موالاة قوافيه بعضها بعضاً (٢).

وللمواليا وزن واحد، هو بحر البسيط ، ويتكون من أربعة مصاريع متشابهة الأواخر ساكنة الروي ، والذين ينظمونه يسمون «الموالية» ، وهم لايلتزمون فيه ضوابط اللغة العربية من حيث الاعراب .

وقد أشار ابن خلكان الى طبيعة هذا الفن وطريقة نظمه فقال (٣): «ألم

(١) ينظر «العاطل الحالي والمرخص الغالي» ص ١٣٢ - ١٤٨ .
(٢) علم القافية ص ٨٧ ، الأدب في بلاد الشام ص ٥٧٩ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٥٩ .

بعض اليعاددة في موالياً على اصطلاحهم ، فانهم مايتقيدون بالاعراب فيه، بل يأتون به كيفما اتفق وذكر الموالياً الآتي :

ظفرت ليلة بلبناتي المجنون
وقلت وافى لحظي طالع ميمون
لبست فاخر الوشي المكتسون
صار الدجى كالضحى فاستيقظ الواشون

وشاع المواليا في أواخر الدولة العباسية، وولع به عدد من الشعراء ، وخصصوا له مكاناً في دواوينهم ، منهم الشاعر الرقيق حسام الدين الحاجري الإربلي (ت ٦٣٢هـ) . قال في محبوب رآه في منامه وقد عاد اليه بعد جفوة وقطيعة (١):

يامن ملكني وعن طرف الوفا عرج
أطلق رقادي وجفني بالسهر زوج
ومن لحسنك بتاج الحسن قد توج
عيد الوصال فبشر الشوق قد مرج

ومن الشعراء العراقيين المشهورين بالمواليا مجد الدين التلعفري (ت ٦٥٧هـ) وعلي بن ابراهيم بن محفوظ المعروف بابن الدرة الواسطي (ت ٧٥٠هـ) وصفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) ، وعز الدين الموصلي (ت ٧٨٩هـ) .

وقد طاب للمصريين النظم في المواليا ، ونسب ابن خلكان مواليا الى عمر بن الفارض (ت ٦٣٢هـ) وعلق عليه بقوله (٢) : «وقد كتبه على اصطلاحهم ، لايراعون فيه الاعراب والضبط ، بل يجوزون فيه اللحن بل عالبه ملحون ، فلا يؤاخذ من يقف عليه» .ومن الذين اشتهروا في مصر بنظمه الحسن بن علي المعروف بابن مطروح (ت ٧٦٢هـ) ، وأحمد بن

(١) ديوان الحاجري ص ٧٠ .
(٢) وفيات الأعيان ٣ : ٤٥٥ .

محمد بن علي المعروف بالحجازي (ت٨٨٣٦هـ) ، وعبد الله بن أبي الفرج بن موسى القبطي المصري (ت ٨٤٠هـ) والبدر الزيتوني (توفي بعد القرن التاسع) . وكان فارساً مجلياً في نظم الموالي ، وهو القائل في مدح الرسول الكريم (١) :

امدحُ لأمـــة محمدٍ يظهر الابـاس
وجِدّ في المدح واحزي الحاسد الخناس
منهم ورب الفلق في ســـائر الاجناس
مـــن القدم خير أمة أخرجت للناس

واستخدم الصوفية هذا الفن في أغانيهم مثل قول أبي فارس عبد العزيز ابن عبد الغني المتوفى (ت ٨٧٣هـ) :

لم تدّعي الذوق والوجدان والأحوال
والت خالي من الاخلاص في الاعمال
ارجع لجسمك فهم البين لك قتال
ترمي بحجر مايشيلُه خمسميت رجال (٢)

ورغب الشاميون في الموالي ، وشاع بينهم . ومن الذين وصلت الينا نماذج من نظمهم في هذا الفن الشيخ أمين الدين بن مسعود الدينري (ت ٨٦٨٠هـ) ، وعز الدين ابراهيم بن محمد بن طرخان المعروف بابن السويدي (ت ٨٦٩٠هـ) ، وعلي بن مقاتل المحدوي (ت ٨٧٦١هـ) وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٨٧٦٤هـ) ، وموفق الدين أحمد بن محمد الطرابلسي المعروف بأبي ذر الحلبي (ت ٨٨٨٤هـ) . واليك هذا الموالي لابن السويدي (٣) :

(١) الفنون الشعرية غير المعربة ، الموالياً ص ٦٤ .
(٢) الدرر الكامنة ٢ : ٣٧٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ٨ : ٢٨ ، الذيل الصافي ١ : ١٢٧ .

البدر والسعد : ذا شهيلك وذا نجمك
والقدّ واللحظ : ذا رمحك وذا سهمك
والبغض والحبّ : ذا قسمي وذا قسمك
والمسك والحسن : ذا خالك وذا عمك

والموالياً الشامي قريب الشبه بالموالياً المصري من حيث الالفاظ والمعاني واستخدام المحسنات البديعية . ولعل خضوع القطرين للحكم الايوبي ثم المملوكي هو الذي دعا الى هذا التشابه .

وانتقل الموالياً الى أقطار عربية أخرى ، منها السودان ، ويسمى عندهم — وان كان من أربعة مصاريع — بالدوبيت (١) — وشاع في المغرب . ولديهم نوع يسمى «العريطة» وهو أقرب مايكون في تركيبه الى الموالياً القديمة الرباعية وتنتهي بعد تلاوتها بكلمة «ياسيدي» .

الكان وكان :

ظهر هذا الفن في القرن الخامس للهجرة ، وشاع بعد ذلك . ونسب فضل أختراعه الى البغداديين . وقد سموه بهذا الاسم ، لانهم يقولون في حكاياتهم الخرافية «كان وكان» للدلالة على أنها روايات لا أصل لها ولا سند (٢) .

والكان وكان من الشعر الملحون (٣) ، ينظم بأربعة أقفال مختلفة . ويكون القفل الاخير منه — أي الرابع — مردوفاً بحرف علّه . وتسمى الاقفال الاربعة بيتاً ، ويمكن للشاعر نظم عدة أبيات على قافية القفل الرابع . ولهذا الفن وزن واحد هو :

(١) فنون الأدب الشعبي لزكي صالح ١ : ١٩٧ .
(٢) ينظر «الماثل الحالي والمرحوم الغالي» ص ١٤٨ — ١٧٠ .
(٣) ينظر وجه الشبه بين الكان وكان وفن آخر شاع آنذاك يعرف بالسلسلة (القلائد المحملية وأصداف بحر السلسلة) للدكتور كامل مصطفى الشبيبي ص ٣٣ — ٣٥ .

٥ – الكان وكان :

البدر والسعد : ذا شهيلٌ وذا نجمك
والقدُّ واللحظ : ذا رمحكٌ وذا سهمك
والخصر والحبُّ : ذا قسميٌ وذا قسمكٌ
والمسك والحسن : ذا خالكٌ وذا صنمك

والموالي الشامي قريب الشبه بالموالي المصري من حيث الالفاظ والمعاني واستخدام المحسنات البديعية . ولعل خضوع القطرين للحكم الايوبي ثم المملوكي هو الذي دعا الى هذا التشابه . .

وانتقل الموالي الى أقطار عربية أخرى ، منها السودان ، ويسمى عندهم — وان كان من أربعة مصاريع — بالدوبيت (١) — وشاع في المغرب . ولديهم نوع يسمى «العيطة» وهو أقرب مايكون في تركيبه الى الموالي ، القديمة الرباعية وتنتهي بعد تلاوتها بكلمة «ياسيدي» .

الكان وكان :

ظهر هذا الفن في القرن الخامس للهجرة ، وشاع بعد ذلك . ونسب فضل أختراعه الى البغداديين . وقد سموه بهذا الاسم . لانهم يقولون في حكاياتهم الخرافية «كان وكان» للدلالة على أنها روايات لا أصل لها ولا سند (٢) .

والكان وكان من الشعر الملحون (٣) . ينظم بأربعة أقفال مختلفة . ويكون القفل الاخير منه — أي الرابع — مردوفاً بحرف علته . وتسمى الاقفال الاربعة بيتاً ، ويمكن للشاعر نظم عدة أبيات على قافية القفل الرابع . ولهذا الفن وزن واحد هو :

(١) فنون الأدب الشعبي لرشدي صالح ١ : ١٦٧ .
(٢) ينظر «العاطل الحالي والمرخص الغالي» ص ١٤٨ – ١٧٠ .
(٣) ينظر وجه الشبه بين الكان وكان وفن آخر شاع آنذاك يعرف بالسلسلة (القلائد المحمدية وأصداف بحر السلسلة) للدكتور كامل مصطفى الشبيبي ص ٣٣ – ٣٥ .

مستفعلن فاعلاتن مستفعلن مستفعلن
مستفعلن فاعلاتن مستفعلن فعلان

وتكثر في الكان وكان المواعظ والزهد والحكم والامثال . قال صفي الدين الحلي (١) : «واتبع طريق النظم فيه ، وظهر لهم مثل الشيخ العلامة قدوة الافاضل جمال الدين بن الجوزي والشيخ الافضل الاكمل شمس الدين ابن الكوفي الواعظ رحمهم الله تعالى ، فنظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات والامثال والحكم» . قال شمس الدين الكوفي (ت ٦٧٥هـ) مخاطباً الغافلين عن عبادة الله (٢) :

إلى متى غفلةٌ وتوانى الركبُ فاتكٌ صُحبتهْ
وفي الدجى حدا بهم الحادي وجدَّ السَّوقْ

حتى المطايا لعلك بمن تقدَّم تلحقْ
عن لا يبحث المطايا مايبصر المخلوقْ

فناقتك تضمحلْ من شدَّة السير بالدما
تصلْ إلى مواطنها مضمخة بخلوقْ (٣)

ياذا مُطلبٌ قد بلغت الأرب . وقد زال التعبْ
إلقَ ألقتْ فالتاقبة طا عليك حقوقْ

(١) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١٤٨ .
(٢) الكافكول للعاملي ١ : ١١٥ .
(٣) الخلوق : نوع من الطيب .

يا بدر تم لمجلسي وكريم الخلائق منظره
جميع من في العالم إلى لقاك مشوق

فبالنبي محمد وحق مولانا علي
ما تريم القلب إلا قوامك المشوق

وانتقل الكان وكان الى مصر ، وسمي بالركالش . قال علي بن ظافر الأزدي(١) :
« وأخبرني بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزّيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يسميها المصريون الركالش ، ويسميها العراقيون «الكان وكان» :

النار بين ضلوعي وانا غريق في دموعي
كني قتيله قتيل أموت غريق وحريق

ومن أبرز الشعراء في نظم «الكان وكان» في القطر المصري : شرف الدين ابن أسعد (ت ٧٣٨هـ) ، وبدر الدين الزيتوني (ت ٨٩٠هـ) ، وابراهيم المعمار (ت ٨٧٤هـ) ، وله (٢) :

شكوت للحب دائي وما ألاقي من الهوى
وقلت : يا نور عيني قد شفني التبريح

قال : تدعي الحب كذباً مارا عليك دلالة
قلت : أكتبو في فؤادي فقال : هذا ريح

أما في الشام فلم يشع كثيراً . وقد أورد ابن شاكر الكتبي مقاطع منه للشاعر علي بن الحسن بن منصور الحريري (ت ٨٦٤٥هـ) وهي في غاية الدعش والبذاءة (٣) .

---

(١) بدائع البداهة ص ٣٤٩ .
(٢) الديوان الشعرية غير المعربة : الكان وكان والنوما ص ٣٥ .
(٣) ينظر فوات الوفيات ٨١٣ .

٦-القوما :

القوما : نشأت في شعري ظهر في بغداد ، وشاع في أواخر الدولة العباسية . ويعزى اختراعه إلى أبي بكر محمد بن عبدالغني المعروف بابن نقعلة (ت ٦٢٩هـ) . وقيل اخترعه شخص آخر قبله لا يُعرف اسمه . وقد أشار صفي الدين الحلي إلى ذلك فقال (١) : «ومخترعوه البغادة أيضاً في دولة الخلفاء من بني العباس — رضي الله عنهم — برسم السحور في شهر رمضان . واشتقاق اسمه من قول المغنين للسحر في آخر كل بيت منه بعد غناء الرمل أو غناء الزجل (قوما للسحور) يُنبّهون به ربّ المنزل . ويذكرون فيه مدحه . والدعاء له ، وتقاضيه بالإنعام . فأطلق عليه هذا الاسم . وصار علماً له ، ثم لما شاع . وكثر فيه التصرف نظموا فيه الغزل والزهري والعتاب وسائر الأنواع . كما قبله من الفنون الأخرى . وقيل إن أول من اخترعه منهم ابن نُقعلة برسم الخليفة الناصر — رحمه الله تعالى — والصحيح أنه مخترع من قبله . وكان الناصر يطرب له . وجعل لابن نقعلة في كلّ سنة ما يفضل عنه من الأنعام . فلما توفي ابن نقعلة . وكان له ولد صغير ماهر في نظم القوما والغناء والأزجال . والغناء بها . وأراد أن يُعرّف الخليفة بموت والده ليُجريه على مفروضه . فتعذّر ذلك عليه فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ الباغ والده من المسحّرين . ووقف في أول ليلة من الشهر تحت الطيارة (٢) . وغنّى التوبة بصوت رقيق فأصغى الخليفة إليه ، وطرب له . فلما وصل إلى القوما كان أول ما قاله :

يا سيّد السادات
لك بالكرم عادات
أنا بنتي ابن نقعلة
وأبي — لعيش أنت — مات

(١) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١٧٣ .
(٢) الطيارة : تعرف الآن بـ «الطارمة» .

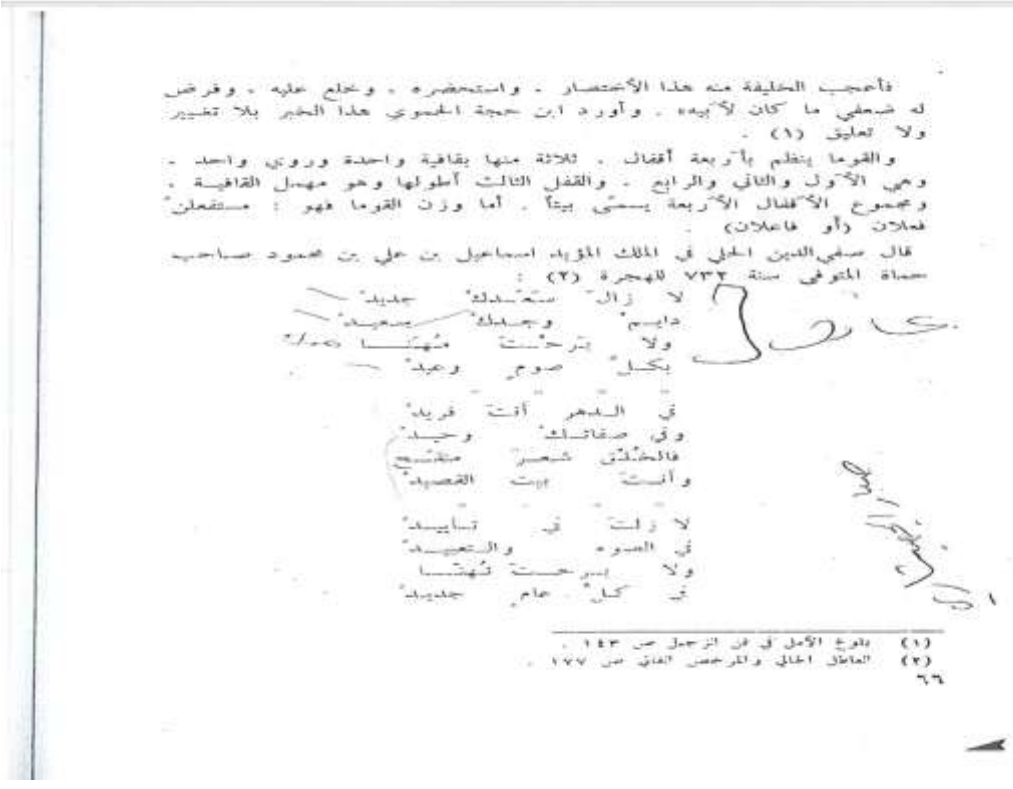

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار ، واستحضره ، وخلع عليه ، وفرض له ضعفي ما كان لأبيه . وأورد ابن حجة الحموي هذا الخبر بلا تغيير ولا تعليق (١) .

والقوما ينظم بأربعة أقفال ، ثلاثة منها بقافية واحدة وروي واحد . وهي الأول والثاني والرابع . والقفل الثالث أطولها وهو مهمل القافية . ومجموع الأقفال الأربعة يسمّى بيتاً . أما وزن القوما فهو : مستفعلن فعلان (أو فاعلان) .

قال صفي الدين الحلي في الملك المؤيد اسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ للهجرة (٢) :

لا زال سعدك جديد
دايم وجدك سعيد
ولا برحت منها
بكل صوم وعيد

في الدهر أنت فريد
وفي صفاتك وحيد
فالخلق شعر منقّح
وأنت بيت القصيد

لا زلت في تأييد
في السعود والتعييد
ولا برحت تُهنّا
في كل عام جديد

(١) بلوغ الأمل في فن الزجل ص ١٤٣ .
(٢) العاطل الحالي والمرخص الغالي ص ١٧٧ .

ظلّك عالينا مديد
ما فوق جودك قيد
وقد غمرت بفضلك
قريبنا والبعيد

لا زلت في كل عيد
تجتلي مجتدد سعيد
عُمرك طويل وقدرك
وافر وظلك مديد

ما زال برّك يزيد
على أقل العبيد
وما برح جود كفك
منا كجبل الوريد

لا زال ظلّك مديد
دايم وباسك شديد
ولا عدمنا محورك
في صوم وفطر وعيد

بهذا الأسلوب السهل المأنوس مدح صفي الدين الحلي الملك المؤيد اسماعيل ابن علي المشهور بمكانته العلمية والأدبية . وهو صاحب كتاب تقويم البلدان وكتاب المختصر في أخبار البشر . وكان هذا المدح في شهر رمضان . وقد لعنه بنعوت العظمة والجلالة . ووصفه بالجود والكرم . ودعا له بالعمر المديد والعيد السعيد في كل عام جديد .

٧–البند:

وإما أنهم يقفون اختياراً في مواضع القوافي حيثما يمكن الوقف . فيكسبون البند ظرفاً ورشاقة وموسيقى قد لا يجدها في سواه من المنظوم الخارج على عمود الشعر من الموشح وما يجري مجراه . وهذه هي الطريقة الشائعة في الإنشاد (١) .

قال عبد الغفار الأخرس يمدح السيد سلمان بن السيد علي القادري الكيلاني المتوفى سنة ١٣١٥ للهجرة (٢) :

«هبّ ذائب الدمع ، رماه البين بالصدع ، بكى من حرقة الوجد ، على من حفظ العهد . وخشف ناعم الخد ، مليح حنبل (٣) الردف ، صبيح لين الوقف . أدار الكأس والطاس ، وحاكى الورد والآس . لعمري منه خداً وعذاراً ، ولقد طالت عليه حراقي بعدما كانت قصاراً ، فهل يرجع مافات ، وهيهات وهيهات فلو تنظر أشياء نظرناها ، بأيام قضيناها بحيث ابتسم الزهر ، وقد بلله القطر ، فسلك اللؤلؤ الرطب بجيد الغصن مثبوت ، وطرف النرجس الغض بخد الورد مبهوت . وللورقاء تصفيف ، وناورقاء تصويت ، ووشي الحسن في الآفاق محبر ومثبوت ، وسيف البرق مشهور ، وقلب النهر مدحور ، وشمل الأرض بالأزهار مجموع ومنثور . فهاتيك الأزاهير ، كأمثال الدنانير . ألا أيها الساقي ، لقد هيجت أشواقي . فيا روحي ويا راحي ، ويا علة أفراحي ، ويا جسمي ومصباحي ، ويا حلفاً من العاج ، سباني طرفك الساجي . وقد أورثني حبك من طرفك سقماً وانكسارا ، وقد أججّ من وجدي سنا نور محياك — وايم الله — نارا .

(١) ميزان البند ص ١٣ .
(٢) علم القافية للدكتور صفاء خلوصي ص ١٢٣ .
(٣) حبل : عمل .

البند : فن أدبي نشأ في العراق في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة ، ثم شاع في منطقة الخليج العربي طيلة ثلاثة قرون (١) .

ويكتب البند على هيئة النثر ، ووزنه «مفاعيلن» مكررة تماماً حتى آخره ، وكفّها حسن (٢) . وهذه التفعيلة هي المحور الأساس لا الشطر ، ويجوز في أول التفعيلة الخرم والحزم (٣) ويغلب في آخر جزء منه الحذف «مفاعي» .

والبند له شبه بالشعر الحر من حيث إقامة الوزن على «التفعيلة» دون الشطر . ويبدو أن البند لم يكتب دائماً بأشطر متباينة . فهناك بنود ذات أشطر متساوية في الطول كالشعر العمودي من نحو ما نجد في بعض بنود حسين العشاري (ت ١٢٠٠هـ) .

وقد اشتهر الكثيرون في نظم البند (٤) ، أمثال : شهاب الدين بن معتوق الموسوي (٨٠٨٧هـ) وعبد الرؤوف بن الحسين الحسني البلخي حفصي (ت١١١٣)هـ ومحمد بن أحمد الزبيدي (ت١٢١٦هـ) ومحمد بن اسماعيل الملقب بابن الخلفة (ت١٢٤٧هـ) وعبد الغفار الأخرس بن عبد الواحد (ت١٢٩٠هـ) والشيخ أحمد بن درويش علي البغدادي الحائري (ت١٣٢٩هـ) .

وقد درج العراقيون على انشاد البنود على إحدى طريقتين ، فإما أنهم يقرأونها معربين أواخر كلماتها . ويغلب هذا في أحوال التلاوة السريعة ،

(١) ينظر البند في الأدب العربي — تاريخه وخصوصه لعبدالكريم الدجيلي ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٥٩ ، وميزان البند للدكتور جميل الملائكة ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٥ ، والبند في الأدب العربي لعبدالرزاق الهلالي ، مجلة الأقلام ، العدد الثالث ١٩٦٤ ، وعلم القافية للدكتور صفاء خلوصي ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٣ .
(٢) الكف : ذهاب نون مفاعيلن ، فتصبح مفاعيل .
(٣) الخرم : حذف أول متحرك من الوتد المجموع بحيث أن «مفاعيلن» تصبح «فاعيلن» .
الحزم : زيادة في أول التفعيلة لا يعتد بها في التقطيع .
(٤) ينظر ميزان البند ص ٢٦ — ٢٨ .

أدرها مُرَّةً تحل ، فقد لذَّ بها الوصل . فلا وعدٌ ولا مطل . حلى الحان ستطور وخيم البُّم والزير ، فإن الزير والبُّم ، يزيل الهمَّ والغم . وجئْ لي من ثنايالك ، على روض محيـــاكَ فإني بلكَ مغرور ، ومن تهديك معذور . لقد طابَ لنا الوقت ، وقد أسعدنا البخت ، وغابَ العاذل اللاحي ، فأصغي بأقداحي ، وقلْ لي هو من تخرجه آفاويق من الخمر ، حكت ذوباً من التبر . وسالت من لجين الكاس إذ ذاك نضارا ، بنت كرم لبست من حبب المزج سوارا ، وتحلت بحلى من سناها كن يحارا ، وأدينا منها حقيقاً ، واتخذناها خليقا . أشبهت من وضح الصبح ضياءً وبهاء ، وصفت حتى حكت لسلمان صفاء .

الشعراء :

أ- شمس الدين الكوفي :

الفصل الثالث

الشعراء

شمس الدين الكوفي ٦٢٣ — ٦٧٥هـ

شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالله الهاشمي الكوفي (١) . ولد في بغداد سنة ٦٢٣هـ في أسرة كريمة ، وتوجه منذ الصغر نحو الدرس والتحصيل العلمي حتى بلغ مرتبة التدريس ، وصفه ابن شاكر الكتبي بقوله : «كان أديباً فاضلاً عالماً شاعراً ظريفاً كيساً دمث الأخلاق» .

مارس شمس الدين الكوفي مهنة التدريس في المدرسة النشئية (٢) ، وتولى الخطابة في جامع السلطان (٣) ، وخصص ساحات في الأسبوع للوعظ في باب بدر (٤) . وكان حريصاً على الاسلام والمسلمين ، يفيد الناس في التدريس ، ويحثهم في خطبه ومواعظه على التمسك بعروة الدين ، والتعاون والتعاضد ، وأخذ الحيطة والحذر من الغادرين والطامعين .

(١) ينظر الحوادث الجامعة ص ٣٣٤ ؛ فوات الوفيات ٤ : ١٠٢ وفيه تصحف اسمه إلى محمود ، عيون التواريخ ٢٠ : ١٣٧ ، ذيل مرآة الزمان ٣ : ١٥ ، تلخيص مجمع الآداب ٤/١ : ٣٥٠ ، عقود الجمان للزركشي (مخطوطة الفاتح رقم ٤٤٣٤) ص ٣٢٤ .

(٢) النشئية : من مدارس الحنفية ببغداد ، بناها الأمير صارتكين بن عبدالله النشئي في حدود سنة ٥٠٠هـ ومواقعها اليوم مدابغ لوقع جامع الوزير المجاور لسوق السراي عند الجسر . (مدارس بغداد في العصر العباسي ص ٤٨) .

(٣) يقع هذا الجامع في أرض العاورية عند المقبرة السهلية المعروفة حالياً بمقبرة الشهداء . (مدارس بغداد ص ٦٢) .

(٤) أحد أبواب دار الخلافة العباسية الأخيرة ، بالجانب الغربي من بغداد وكان يسمى باب الخاصة ثم نسب إلى الأمير بدر مولى المعتضد بالله ، وكان عند أرض المدرسة المرجانية الحالية من الغرب لا الشرق .

وحينما داهم هولاكو بجيوشه الجرارة العراق ، وخرب العاصمة بغداد سنة ٦٥٦هـ ، واستباح الدور والمدارس والمساجد ، ونهب الأموال ، وانتهك الأعراض ، وقتل الناس بلا رحمة ولا شفقة ، تألم شمس الدين الكوفي أشد الألم ، وعبّر عن مشاعره تجاه هذه الحادثة الموجعة بقصائد كثيرة ، يبكي فيها دولة بني العباس ، والمدينة المنكوبة ، ووصف الفضائح التي ارتكبها هذا الطاغية ، وقد سماه محمد رضا الشبيبي في كتابه عن أبي الفوطي «شاعر مأساة بغداد» .

رثى الشاعر الأهل ، وندب الأحباب ، وأبّن الأصحاب ، في قصائد تفيض بالدمع والأسى ، وما نظن شاعراً استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه شمس الدين الكوفي في بكاء الدولة العباسية ، فقد اقتطع بكاءه عليهم من فؤاده ، وسبق لنا ذكر قصيدة له في الفصل الأول ، ونورد هنا قصيدة أخرى سلك فيها مسلك المتيمين الذين أضناهم فراق الأحزاء ، وفرّح جفونهم كثرة البكاء ، مطلعها (١) :

عنّدي لأجل فراقكم آلام ... فلأمّ أعدل فيكم وألام
من كان مثلي للحبيب مفارقاً ... لاتعذلوه فالكلام كلام (٢)
نعم المساعد دمعي الجاري على ... خدي إلا أنه نمّام
فعذ في ديار الظاعنين وناديها ... (يادار مافعلت بك الأيام) (٣)

ويتساءل في قصيدته — على عادة من وقف على الأطلال — عن الراحلين الذين خلفوه يتجرع لوعة الأسى ، ومرارة الحرمان ، وعذاب الوحدة ، ويقسم باليقاء على عهد الهوى والمحبة مهما كلفه ذلك :

وحياتكم إني على عهد الهوى ... باقٍ ، ولم يخفر لديّ ذمام
فدمي حلال إن أردت سواكم ... والعيش بعدكم عليّ حرام

(١) فوات الوفيات ٢ : ٢٣٢ .
(٢) الكلم : الجرح ، وجمعه كلوم وكلام .
(٣) صدر بيت لأبي نواس ، وعجزه : فعاملك والأيام ليس نضام (ديوان أبي نواس ص ٤٠٧)

للجمال ، واشادته بصبوات نفسه ، ولوعات هواه (١) . ومن شعر شمس الدين في باب الغزل الأبيات الآتية من قصيدة أولها (٢) :

شهود غرامي في هواك عديل ... سهادٌ ودمعٌ سائل وتحـــول
وشوقي الى لقياك شوقٌ مبرّح ... ولي شرح حالٍ في الغرام يطول

ويقول في آخرها :

ترى هل لنا بعد الفراق تآلف؟ ... وهل لي إلى طيب الوصال وصول ؟
لأشكو إليه مالقيت وما الذي ... جرى لي ودمعي شاهد ودليل
فوالله مايشفي المشوقَ رسالةٌ ... ولايشتكي شكوى المحب رسول

إن المحبّ — كما لاحظنا — يذوب من تعب السهاد والبكاء ، ويضنى من تباريح الصبابة ولواعج الغرام ، فلا يقرّ له قرار ، ولايهدأ له بال مادام بعيداً عن الحبيب ، وهذا مبدأ الصوفية الذين يحاولون بوجدهم الوصول إلى الذات العلية .

وشارك شمس الدين الكوفي في نظم الموشحات ، وهو متأثر — كما يبدو — بالشاعر الصوفي الأندلسي محيي الدين بن عربي الذي ارتحل إلى الشرق ،وتنقل بين مصر والشام والحجاز وبغداد وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ وقبره بالصالحية في مسجد يعرف باسمه في سفح جبل قاسيون .

قال شمس الدين في مطلع موشحة له (٣) :

قد صفا الوقت وقد رقّ النسيم ... قـــم بنـــا نربـــح
قد خلا البيت ومن تهوى نديم ... حققنـــــا نفـــــرح
في طوى قد شمت جنات النعيم ... أبـــــــداً نفـــــتح

" " "

(١) في موكب الطالبين ص ٦٦ .
(٢) فوات الوفيات ٤ : ١٠٥ .
(٣) فوات الوفيات ٤ : ١٠٦ .

ويسترسل الشاعر على هذه الشاكلة الى نهاية القصيدة في البكاء والنحيب دون أن يوضح لنا مادهى المدينة المنكوبة من خراب ودمار ، وقتل وتشريد وأسر واختصاب ، ونهب وحرق ، والباكَ مايقوله في خاتمة القصيدة :

يالبيت شعري كيف حال أحبتي ... وبأي أرضٍ خيّموا وأقاموا
مالي أنيس غير بيت قاله ... صبٌ رمته من الفراق سهام
(والله مااخترت الفراق وإنما ... حكمت عليّ بذلك الأيـــام)

وكان شمس الدين يعتز بأرومته العربية ، ويتمسك بها ، ويخلص لها ، وقد أشار الى ذلك في شعره ، فقال (١) :

عربٌ يعزّ المحتمى بجناحهم ... والعرب مازالت تعز كذا كـــا

وحينما وجد هؤلاء العرب قد أصابهم الضيم والحيف بعد ذلك العز ، احتمى برسول الله صلى الله عليه وسلم ووجده خير عزاء لنفسه المكلومة وشفاء لها . قال في قصيدة طويلة (٢) :

جار الزمان على قلبي الحزين ولو ... لامدحي المصطفى لم يبق لي رمق
المجتبى خير خلق الله كلهم ... ومن لكمل فيه الخلق والخلق
صلى الأله على المختار ماطلعت ... شمسٌ وأشرقَ نجمٌ او دجا غسق

وغالب شعره الذي وصل إلينا — ماعدا القصائد التي نظمها في رثاء بغداد — في الغزل الصوفي وذكر الديار الحجازية والتغني بها ، وقد حاكى في قسم غير قليل من هذا الشعر طريقة الشريف الرضي في حجازياته التي قالها في أماكن لايصلّ فيهـــا الرفث والفسوق نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها ، وبفورانها فما استطاع لها كتماناً ، فأرسلها تراتيم تحلّت بصفاء الروح ، وسمو العاطفة ، فحفر له معاصروه حتافـــه

(١) فوات الوفيات ٤ : ١٠٤ .
(٢) عيون التواريخ ٢٠ : ١٤٠ .

ويسترسل الشاعر على هذه الشاكلة الى نهاية القصيدة في البكاء والنحيب دون أن يوضح لنا مادهى المدينة المذكورة من خراب ودمار . وقتل وتشريد وأسر واغتصاب ، ونهب وحرق ، والياك مايقوله في خاتمة القصيدة :

يالیت شعري كيف حال أحبتي ... وبأي أرضٍ خيّموا وأقاموا
مالي أنيس غير بيت قاله ... صبٌ رمته من الفراق سهام
(والله مااخترت الفراق وإنما ... حكمت عليّ بذلك الأيام)

وكان شمس الدين يعز بأرومته العربية ، ويتمسك بها ، ويخلص لها ، وقد أشار الى ذلك في شعره ، فقال (١) :

عربيٌ يعزّ المحتمى بجناحهم ... والعرب مازالت تعز كذا كما

وحينما وجد هؤلاء العرب قد أصابهم الضيم والحيف بعد ذلك العز ، احتمى برسول الله صلى الله عليه وسلم ووجده خير حزاء لنفسه المكلومة وشفاء لها . قال في قصيدة طويلة (٢) :

جار الزمان على قلبي الحزين ولو ... لامدحتي المصطفى لم يبق لي رمق
المجتبى خير خلق الله كلهم ... ومن تكمل فيه الخلق والخلق
صلى الأله على المختار ماطلعت ... شمسٌ وأشرقَ نجمٌ او دجا غسق

وغالب شعره الذي وصل إلينا — ماعدا القصائد التي نظمها في رثاء بغداد — في الغزل الصوفي وذكر الديار الحجازية والتغني بها ، وقد حاكى في قسم غير قليل من هذا الشعر طريقة الشريف الرضي في حجازياته التي قالها في أماكن لايحلّ فيها الرفث والفسوق تنفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها ، وبفورانها فما استطاع لها كتماناً ، فأرسلها تراتيم تحملت بصفاء الروح ، وسمو العاطفة ، فغفر له معاصروه هناقه

(١) فوات الوفيات ٤ : ١٠٤ .
(٢) عيون التواريخ ٢٠ : ١٤٠ .

للجمال ، واشادته بصبوات نفسه ، ولوعات هواه (١) . ومن شعر شمس الدين في باب الغزل الأبيات الآتية من قصيدة أولها (٢) :

شهود غرامي في هواك عدول ... سهادٌ ودمعٌ سائل وتحول
وشوقي الى لقياك شوقٌ مبرّح ... ولي شرح حالٍ في الغرام يطول

ويقول في آخرها :

ترى هل لنا بعد الفراق تآلفٌ؟ ... وهل لي إلى طيب الوصال وصول ؟
لأشكو إليه مالقيت وما الذي ... جرى لي ودمعي شاهد ودليل
فوالله مايشفي المشوقَ رسالةٌ ... ولايشتكي شكوى المحب رسول

إن المحبَ — كما لاحظنا — يذوب من تعب السهاد والبكاء ، ويضنى من تباريح الصبابة ولواعج الغرام ، فلا يقرّ له قرار ، ولايهدأ له بال مادام بعيداً عن الحبيب ، وهذا مبدأ الصوفية الذين يحاولون بمواجدهم الوصول إلى الذات العلية .

وشارك شمس الدين الكوفي في نظم الموشحات ، وهو متأثر — كما يبدو — بالشاعر الصوفي الأندلسي محيي الدين بن عربي الذي ارتحل إلى الشرق ،وتنقل بين مصر والشام والحجاز وبغداد وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ وقبره بالصالحية في مسجد يعرف باسمه في سفح جبل قاسيون .

قال شمس الدين في مطلع موشحة له (٣) :

قد صفا الوقت وقد رقّ النسيم ... فهم بنا نريح
قد خلا السمت ومن نهوى نديم ... حيّ هيا نفرح
في طوى قد شمت جنات النعيم ... أبدا نفتح

(١) في موكب الخالدين ص ٦٦ .
(٢) فوات الوفيات ٤ : ١٠٥ .
(٣) فوات الوفيات ٤ : ١٠٦ .

فاختلس من صرف دهر ورقيب ... مباحة الأمكان
فالتواني بعد أن يدلو الحبيب ... غاية الحرمان
وفي آخرها قال :
ياعذولي ليس ذا وقت العتاب ... فأنا مشغول
أنا أبغي الآن مع كشف الحجاب ... أبلغ المأمول
إن تقل أنت قتيل فالجواب ... رضي المقتول
خلّني ياعاذل الصب الكئيب ... كان ماقد كان
فحبيبي تُعتب عيني لايعيب ... من ضميري دان

إن شعره — على سهولة ألفاظه وبساطة تراكيبه — لايخلو من الصنعة والتكلف ، واستخدام صور البيان وزخارف البديع ، فمن الجناس قوله(١) :

ليتَ العذول يرى من فيه يعذلنا ... لعله إذ يرى عيناً براعينا
الى متى أحمل البلوى وعاذلنا ... بغير ماهو يجنيها يعنّينا

ومن الطباق في القصيدة نفسها :

فصار يرحمنا من كان يأملنا ... وعاد يُبعدنا من كان يدنينا
وبات يخذلنا من كان ينصرنا ... وصار يرخصنا من كان يغلينا

ومن الكناية قوله (٢) :

أسكنته ربّع الغرام فيا لـه ... من ساكنٍ لايستطيع حراكا

ومن الاستعارة في القصيدة نفسها :

ضرب الغرام على النفوس سرادقاً ... والحسن مدّ على العقول شباكا
كيف الخلاص من الحمى وبربعه ... غزلان تنصب للأسود شراكا

توفي شمس الدين الكوفي سنة ٦٧٥هـ بعد أن عاصر أحداث فترة مرّ بها العراق . وقد عبّر عنها في شعره أصدق تعبير يمكن أن يعدّ وثيقة هامة الى جانب الوثائق التاريخية .

(١) فوات الوفيات ٤ : ١٠٣ .
(٢) فوات الوفيات ٤ : ١٠٣ .

ب- شرف لدين البوصيري :

شرفُ الدين محمد بن سعيد البوصيري ٦٠٨ — ٦٩٥ هـ

نال المديح النبوي حظوة كبيرة عند كثير من الشعراء ، منهم الإمام يحيى ابن يوسف الصرصري المعروف بشاعر رسول الله المقتول سنة ٦٥٦هـ بباب النصر (١) . والإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري الذي نحن بصدد دراسة حياته وشعره .

ولد شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد (٢) في مدينة دلاص بصعيد مصر غربي النيل سنة ٦٠٨هـ ، وكان أبوه من بوصير ، وهي إحدى القرى القريبة من الفيوم بمصر . ويتّفق المؤرخون على انتمائه إلى قبيلة صنهاجة التي عاشت في بلاد المغرب وقد أشار البوصيري إلى ذلك في شعره ، فقال (٣) :

فقل لنا مَن ذا الأديب الذي زادَ به حُبّي وَوَسواسي
إن كان مثلي مغربياً فما في صُحبة الأجناس من باس
وإن يكذّب لبسيتي جلّتُه بجبّتي الصّوف ودَفّاسي

لم تصل إلينا أخبار البوصيري الخاصة بسيرته كاملةً ومفصلةً ، وكل ما نعلم منها أنه حفظ القرآن الكريم في صغره ، وتعلّم مبادىء الفقه ، ورحل إلى القاهرة والتحق بمسجد الشيخ عبد الظاهر ، حيث درس العلوم الدينية واللغة العربية وآدابها وشيئاً من التاريخ .

(١) نال ابن شاكر الكتبي عنه : « صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق ، لا أعلم شاعراً أكثر من مدائح النبي صلى الله عليه وسلم أكثر منه ، وشعره طبقة عالية ، وكان فصيحاً بليغاً ، شعره يدخل في ثلاث مجلدات ، وكله جيد » . فوات الوفيات ١ : ٢٩٨ .

(٢) انظر ترجمته في فوات الوفيات ٣ : ٣٦٧ ، الوافي بالوفيات ٣ : ١٠٥ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ١ : ١٢٤ ، شذرات الذهب ٥ : ٤٣٢ ، تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٩٠ ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٩٦ ، الأدب في العصر المماليكي ١ : ٢٩٥ ، البوصيري حياته وشعره لعبدالعليم القباني (دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨) ، مقدمة ديوانه ، تحقيق سيد كيلاني (القاهرة ١٩٥٥)

(٣) الديوان ص ١٢٦ .

التحق البوصيري بالوظيفة ، قبل التحاقه بشيخه أبي العباس المرسي (١) أحد قادة التصوف في ذلك العصر ، وتولى الجبايات بالشرقية ، ثم كاتباً في بلبيس وهي مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الذاهب نحو الشام. وكان حفيفاً نزيهاً . وقد آلمه أخلاق الموظفين الرديئة ، ودناءتهم ، وسوء معاملتهم للناس ، وأشار إلى ذلك في قصيدة له ، فقال (٢) :

ثكلتْ طوائفَ المستخدمينا فلم أرَ فيهم رجلاً أمينا
فخذ أخبارهم مني شفاهاً وانظر في لأخبرك اليقينا
فقد عاشرتهم وبلغت فيهم مع التجريب من عمري سنينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم ، فكأنهم سرقونا العيونا
ولولا ذاكَ ماليوا حريراً ولا شربوا خمورَ الأندرينا
أمولانا الوزيرَ ، غفلتَ عنا بهم من الكلاب الخائنينا
وفي دار الولاية أيّ نهبٍ فليتك لم تهبْ تلك الناهبينا

إن القصيدة صورة واضحة للحالة المزرية التي كان عليها الموظفون آنذاك في ابتزاز أموال المواطنين ، وعرقلة أعمالهم ، وتأخير معاملاتهم والتلاعب بمقدراتهم .

لم يصبر البوصيري على ما كان يرى في دوائر الدولة من أعمال مقرفة فاعتزل الوظيفة ، وانزوى في بيته ، واتخذه مكاناً لتحفيظ القرآن الكريم ، ليكسب عيشه بشرف وكرامة . وقد أشار إلى ذلك بقوله (٣) :

قد صار كُتّابي ويشي من أبي خيري وأبنائي كسرجِ حمام

وتتلمذ عليه الكثيرون ، واخذوا منه ، وراجعه طلاب المعرفة الذين صاروا فيما بعد علماء مشهورين أمثال أبي الفتح بن سيد الناس اليعمري

(١) أبو العباس أحمد بن عمر بن هدية الأنصاري ، يلقب بالمرسي نسبة إلى مرسية بالمغرب ، توفي سنة ٦٨٦ .

(٢) الديوان ص ٣١٨ .

(٣) الديوان ص ٢٠٦ .

الاشبيلي (ت ٧٣٤ هـ) وعز الدين بن جماعة الكناني الحموي (ت ٧٣٥ هـ) وأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)

أصيب البوصيري في اخريات أيامه بمرض عضال ، أقعده عن الحركة . وتوفي بمدينة الاسكندرية سنة ٦٩٥ هـ ، وله فيها قبر مشهور يتصل به مسجد تدرس فيه العلوم الدينية .

شعره :

نظم البوصيري شعراً كثيراً ، يمثل حياته الخاصة ، وحياة المجتمع المصري في القرن السابع للهجرة . فهو طوراً في زي الصوفي المتقشف ، وطوراً في ثوب المداعب المتظرف ، وله قصائد في شكوى حاله ، والتذمر من الموظفين تمثل جانباً من سوء الحالة الاجتماعية وعيوب الادارة بمصر في ذلك الحين (١) .

ان شعره بسيط في روحه وأسلوبه ، ولاسيما الذي انتقد فيه موظفي الدولة ومستخدميها وقد ذكرنا أبياتاً من قصيدته النونية . ونلاحظ هذه الميزة أيضاً في شعره الذي تحدث فيه عن أحواله الخاصة . وأوضاع أسرته من ذلك قصيدته التي رفعها الى الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم (٢) :

يا أيها المولى الوزير الذي ... أياديه طائعة آمره
ومن له منزلة في العلا ... تكل حسن أوصافها الفكره
اليك نشكو حالنا ، إننا ... عائلة في غاية الكثره
أحدثت المولى الحديث الذي ... جرى لهم بالخرط والاثره
صاموا مع الناس ولكنهم ... كانوا لئن يبصرهم عيره
ان شربوا فالبئر زير لهم ... ما يرجتي والشربة السجره
لهم من الخبز مسلوقة ... في كل يوم تشبه النشره

(١) ينظر المدخل في الأدب العربي ص ١١٦ .
(٢) الديوان ص ١١٧ .

أقول مهما أجتمعوا حولها ... تزحموا في الماء والمخضره
وأقبل العيد وما عندهم ... قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهم إن أبصروا كعكة ... في يد طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها ... بشهقة تبعها زفره

ان هذا الشعر أشبه بطلب استرحام ، عرض الشاعر فيها حالة أطفاله وهم يتضورون جوعاً ، والقصيدة طويلة نقل فيها حديث زوجته مع أختها فقال :

ويوم زارت أمهم أختها ... والاخت في الغيرة كالضره
واقبلت تشكو لها حالها ... وصبرها مني على العسره
قالت لها : كيف تكون النسا ... كذا مع الازواج ياعيره
قومي اطلبي حقك منه بلا ... تحلحف منك ولا فتره
وان تأبى فخذي ذقنه ... ثم انتفيها شعرة شعره
قالت لها : ماهكذا عادتي ... فان زوجي عنده ضجره
أخاف إن كلمته كلمة ... طلقني ، قالت لها : (بعره)
وجرت قدري في نفسها ... فجاءت الزوجة محتقره
فاستقبلتني فتهددتها ... فاستقبلت رأسي بأجرة
وحق من حاله حالنا ... أن ينظر المولى لنا نظره

لقد طغى على جو القصيدة روح الدعابة ، ويبدو أنه كان ميالاً الى هذه الطريقة في تعامله مع الآخرين حينما يقع في حرج أو تصيبه فاقة أو مشكلة وكان البوصيري كثير السؤال ملحاً في الطلب ، يحرج — أحياناً — عن حدود الأدب والرزانة ، من ذلك قوله وهو يطلب كتافة من القاضي عماد الدين (١) :

ما كذا في ذا الصيام كتافته ... اه ، وايعدها علي مساقه

(١) الديوان ص ١٢٩ .

وقصيدته التي نظمها وهو في طريق عودته من الديار المقدسة ،مطلعها(١) :

أزمعوا البين وشدّوا الرّكابا فاطلب الصبر وخلّ العتابا

وتعدّ قصيدة البردة من أكثر قصائده المدحية انتشاراً ،وقد بهرت معاصريه ومن جاء بعدهم إلى اليوم، وشرحت وعورضت مراراً وتكراراً، وترجمت إلى لغات عديدة كالفارسية والتركية ،وعارضها أحمد شوقي بهمزية مشهورة له. كما افتتن بها الشعراء ونظموا قصائد في مدح الرسول الكريم على غرارها عُرفت «بالبديعيات » ضمنوا كل بيت فيها محسناً من محسنات البديع (٢) .

أما المناسبة التي استدعت نظم قصيدة البردة، فقد ذكرها ابن شاكر الكتبي، (٣) وخلاصتها أن البوصيري أصيب بالفالج، ونظم هذه القصيدة وقرأها بين يدي النبي في منامه ،وقد أعجب بها وألقى عليه بردته ،فانتبه وهو مُعافى من مرضه . والرواية — على مايبدو — من نسج الخيال، اذ ذكر ناقلو هذه القصيدة أن البوصيري لما وصل إلى قوله : «فبلغ العلم فيه أنه بشر» توقف. فقال له النبي : قل يامام: «وأنه خير خلق الله كلهم» فأدرج البوصيري هذا المصراع في قصيدته ،وهذا إفك وبهتان، اذ ورد عجز هذا البيت في أحدى قصائد الإمام العتّرصتري (٤) لقد وصف البوصيري في مدائحه النبوية شمائل الرسول الكريم وخصاله. وذكر شيئاً من سيرته. وطرفاً من مزايا رسالته العظيمة ،وضمنها نصائح وارشادات

(١) الديوان ص ٢٩ .
(٢) من الذين اشتهروا بنظم البديعيات : صفي‌الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) ، وعزالدين الموصلي (ت ٧٨٩هـ) ، وابن جابر الأندلسي (ت ٧٨٠هـ) ، وابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) ، وابن المقري (ت ٨٣٧هـ) وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) .
(٣) فوات الوفيات ٣:٣٦٨ .
(٤) الشعر العربي في العراق من سقوط بغداد حتى سقوط بغداد ص ٢٧٥ . وينظر بحثنا (المدائح النبوية في مصر الحروب الصليبية) في مجلة آداب الرافدين ، العدد ١٣ لسنة ١٩٨١.

م/٩/٢٠٠٤م

قال قومٌ: ان العماد كسرينم قلت :هذا منكم حديث خرافه
أنا ضيفٌ له وقد متّ جوعـــاً ليت شعري لمَ لاتعدّ الضيافه

ويستطرد بعد ذلك في أبيات كلها تشنيع على القاضي المذكور والسخرية منه، ويبدو أن هذه القصيدة وغيرها هي التي دفعت الإمام العلامة شهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي(ت ٧٢٥هـ) أن يقول (١): «كان البوصيري — على جزالة فضلة — محقوراً، لإطلاق لسانه في الناس بكل قبيح. وذكره لهم بالسوء في مجالس الأمراء والوزراء».

اتجه البوصيري بعد اتصاله بأبي العباس المرسي وتقدم العمر به وهجوم المرض عليه الى نظم قصائد في مدح الرسول الكريم .ومن أشهر هذه القصائد في هذا المجال «البردة» وهي في مئة وستين بيتاً مطلعها (٢):

أمن تذكّر جيران بذي سلم مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍبدم

وهمزيته وهي في أربعمئة وسبعة وخمسين بيتاً. مطلعها: (٣)

كيف ترقى رقيكَ الأنبيـــاء ياسماءً ما طاولتهـــا سمـــاء

واللامية التي سماها «ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد» وهي في مئتين وأربعة أبيات .مطلعها (٤):

لك مني أنتَ بالذات مشغـــول وأنتَ عن كلّ ماقدمت مسؤول

وثمة قصائد أخرى مدح بها الرسول الكريم .نظمها في رحلته الى الحجاز منها قصيدة مطلعها (٥):

سارت العيس برجتهن الحنينـــا ويجاذبن من الشوق البُرينـــا

(١) الديوان ص ٢٣٩ .
(٢) الديوان ص ١٩٠ .
(٣) الديوان ص ١ .
(٤) الديوان ص ١٧٢ .
(٥) الديوان ص ٢٠٩ .

ودعا إلى رياضة النفس وتهذيبها في صدق نظر وخلوص نيّة. من ذلك قوله: (١)

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على
حبّ الرّضاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه
إنّ الهوى ما تولّى يُصم أو يَصم

وراعها وهي في الأعمال سائمة
وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

كم حسّنت لذّة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السّمّ في الدسم

واخشَ الدسائس من جوع ومن شبع
فرب مخمصة شرّ من التخم

واستفرغ الدّمع من عين قد امتلأت
من المحارم والزم حمية القدم

وقال البوصيري ثناء الدارسين القدامى. فقال ابن شاكر الكتبي (٢): «وشعره في غاية الحسن والطلاوة. جادت ألفاظه منسجم التراكيب». كما وازنه ابن سنبل التامي اليمني بجماعة من شعراء عصره. فقال: «هو أحسن من أبي الحسين يحيى الجزار وسراج الدين عمر الوراق» (٣).

إن أجود ماقال البوصيري من شعر كان في مدح الرسول الكريم. ومن أهم سماته طول النفس. والتفصيل والاستقصاء في المعاني. والميل الى الحجاج

(١) الديوان ص ١٩٠.
(٢) فوات الوفيات ٣: ٣٦٤.
(٣) أبو الحسين يحيى بن عبدالعظيم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩هـ. وسراج الدين عمر بن محمد بن حسن الوراق المتوفى سنة ٦٩٥هـ.

ج- صفي الدين الحلي :

صفي الدين الحلي ٦٧٧ — ٧٥٠هـ

هو أبو الفضل صفي الدين عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي (١). ولد يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٧هـ في مدينة الحلة. تلك المدينة التي أسسها المزيديون سنة ٤٩٥هـ وحملت مشعل الحضارة الإسلامية زمناً من الزمن غير يسير. وظلت تزهى سائر المجد يوم كان معظم البلاد الإسلامية يتخبط في ظلام دامس. وقد طغى عليها الاضطراب في جميع نواحي الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية من جراء تلك الهجمات المدمرة التي شنها عليهم المغول الذين سيطروا بالعسف والتنكيل وقضوا على معالم المدنية والحضارة. إلا الحلة فقد نجت من هذا بأعجوبة فظلت شعلتها تتوقد. وما زال نورها يتوهج في العلم والعرفان. فاستطاع الصفي أن ينهل ماشاء من هذا المورد العذب (٢). وقد ذكر صفي الدين الحلة في شعره. فقال: (٣)

ألا بلغ هديت سراة قومي ... بحلة بابل عني السلام
ألا لاتشدوا قلباً بأرض ... فاني كل يوم في مقام

وقال: (٤)

من لم تر الحلة الفيحاء منقلبه ... فانه في انقضاء العمر مغبون
فالدور طافحة، والريح نافحة ... والوزق سادحة، والظل ممدود
نشأ في حجر أسرة عربية لها مكانتها المرموقة ومنزلتها الرفيعة. وتعلم

(١) تنظر ترجمته في فوات الوفيات ٢: ٣٣٥، الدرر الكامنة ٢: ٣٧٩، النجوم الزاهرة ١٠: ١٣٨، بدائع الزهور ١: ١٧٣، ٢١٠، أدباء حلبون للدكتور جواد مطوش ص ١٧٠، صفي الدين الحلي لياسين الأيوبي، صفي الدين الحلي للدكتور محمود رزق سليم.
(٢) أدباء حلبون ص ١٧٠.
(٣) الديوان ص ١٤٠.
(٤) الديوان ص ٢٨٠.

القراءة والكتابة منذ الصغر. ودرس علوم اللغة العربية وآدابها في شبابه. ومارس الفروسية والصيد والألعاب المسلية كالنرد والشطرنج.

وحدث في الحلة نزاع شديد على الرياسة والإمارة. لاسيما بين أعمال صفي الدين من بني محاسن، وآل أبي الفضل. وحينما قتل خاله عبد الله بن حمزة بن محاسن غيله وهو في مسجده رثاه بقصيدة حارة. وحث قومه على أخذ الثأر. وقد وقعت معركة حامية بين العلويين قرب بغداد سنة ٧٠١هـ عرفت بمعركة «زوراء العراق». شارك فيها صفي الدين الحلي وأبلى فيها بلاء حسناً والتحن الجراح في الأعداء. وأبدى شجاعة نادرة وبسالة فائقة. ونظم قصيدة حماسية أولها (١):

سلي الرماح العوالي عن معالينا ... واستشهدي البيض: هل خاب الرجا فينا

لما سعينا، فما زلت عزائمنا ... حتى نروم. ولا غايت مساعينا

يا يوم وقعة (زوراء العراق) وقد ... دلت الأعادي كما كانوا يدينونا

ترك صفي الدين الحلة — بعد أن أفلت الخصوم راحته وتهددوا حياته — ونزل ماردين، واتصل بملكها المنصور (نجم الدين أبي الفتح غازي بن أرتق التركماني) ونظم في مدحه تسعاً وعشرين قصيدة في كل قصيدة منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم يبتدىء به في كل بيت منها ويه يختتم البيت وسمّى تلك القصائد «درر النحور في مدائح الملك المنصور» ومدحه أيضاً بقصائد أخرى أودعها ديوانه.

وأشار إلى الحفاوة والتكريم والتقدير التي لقيها من بني أرتق في مقدمة ديوانه. فقال: (٢) «لم جرت بالعراق حروب ومحن، وطالت خطوب

(١) الديوان ص ٢٠.
(٢) الديوان ص ١٠.

وأسن ، أوجبت بُعدي عن عريني ، وهجر أهلي وقريني ، بعد أن تكمّل لي من الأشعار ، ماسبقني إلى الأمصار ، وحدّث به الركبان في الأسفار . فلما أحسست إلى مساءات الزمان ، وأرضاني سُخط الخلدان ، بحطّ رحالي بفناء الملوك ابني الملوك ، كهف الغنى والصعلوك ، فخر الملوك الأواخر والأوائل ، ملوك ديار بكر بن والثل الأوتبق راقي قنّق الدين ، جابري كسر الإسلام والمسلمين ، لا زالت أيامُهم باسمة الثغور ، ماسرت الريح الجارية ، وجرت الروح السارية ، وطاير ورّق الأشجار ، وتشاجر ورّق الأطيار .

فقيّدتني عندهم أنعمُ هُنّ قيود الأمل السانح ، وكبّلت فكري بمدحي لهم مكارمُ المنصور والصالح .

فمذ تبرّعوا بالإحسان قدمي ، وصانوا عن بني الزمان وجهي وذمي ، حمدت لقصدهم مطايا الآمال ، وقلت لقلبي لاتخيل عندك تُهد بها ولا مال ، ونظمت في مدح السلطان الأعظم ، مستخدم السيف والقلم ، ربّ المناقب والمغازي ، الملك المنصور نجم الدين أبي الفتح غازي ، أطاب الله مثواه ، وقدّس ثراه قصائد موسّلة مبجلة ومفصلة ، فالمجملة ما جعلته كتاباً مفرداً كالديوان إذ لا يحتمل الزيادة والنقصان ، لكونه تسعاً وعشرين قصيدة ، كل منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم ، يُبدأ في كل بيت منها به ويه يُختتم ، ورسمته بدرر النحور ، في مدائح الملك المنصور ، والمفصلة ما انتخبت أحسنها حسّب الإمكان ، وأودعته أثناء هذا الديوان » .

وعاش صفي الدين زمناً طويلا في كنف الأرتقيين ، ولاسيما المنصور وابنه الصالح الذي نظم فيه جملة من القصائد سماها : «الصالحيات» واشتغل بالتجارة ، وطاف في عدة أقطار ، ومدح جماعة من ملوكها وأمرائها ، ومكث في مدنها الرئيسة مدداً غير قليلة ، مثل دمشق وحلب في الشام ، واياس في أرمينية الصغرى المعروفة آذ ذاك بسيس ، ودخل بدليس ، وزار

الحجاز ، وأدى فريضة الحج ومدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — بشعر جيد من ذلك قصيدته التي يقول في مطلعها (١) :

كفى الزاير حسناً أن يقال نطيرها فيرجى ، ولكنا بذلك نضيرها

وارتحل الى القاهرة ، وشاهد معالمها ، واتصل بأدبائها وعلمائها أمثال الشاعر ابن نباتة المصري ، والمؤرخ صلاح الدين الصفدي ، والقاضي علاء الدين بن الاثير ، ولقي حفاوة بالغة وترحيباً حاراً من الجميع ، ومدح الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر بقصيدة باثية عارض بها قصيدة المتنبي التي أولها (٢) :

بأبي الشموس المائحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

ومطلع قصيدة صفي الدين (٣) :

أسبانَ من فوق النهود ذوائبا فجعلن حيّات القلوب ذوائبا

وبقي متجولا ، يتردّد الى حلب وحماة ودمشق ، ثم يعود الى ماردين ، وحاد في آخر عمره الى بغداد ، واستقر فيها ورآه الفيروز أبادي مؤلف القاموس وقال (٤) : «اجتمعت سنة ٧٤٧هـ بالأديب الشاعر صفي الدين بن سرايا الحلي — رحمة الله — بمدينة بغداد ، فرأيته شيخاً كبيراً ، وله قدرة تامة على النظم والنثر ، وخبرة بعلوم العربية والشعر ، فغزله أرق من النسيم ، وأدق من المحيا الوسيم ، ولكنه كان في حالة رثة ، وهيأة قبيحة ، وعمامة وسخة ، ووجهه أقبح من الكل ، ومن بر صوره لايظن أنه هو الذي ينظم الشعر الذي هو كالدر في أصدافه» .

واصيب صفي الدين بالتهابٍ المفاصل ، وكان يعاني منه ألماً شديداً ، وفي سنة ٧٥٠هـ انتشر الطاعون ببغداد وغيرها من البلاد ، فأتى عليه عن ثلاث وسبعين سنة من العمر .

(١) الديوان ص ٧٣ .
(٢) شرح ديوان المتنبي ١ : ٨٨ .
(٣) الديوان ص ٩٥ .
(٤) شعراء الحلة أو البابليات للطائي ٣ : ٢٧٢ .

آثاره

لصفي الدين تآليف في الادب واللغة منها :

١ — العاطل الحالي والمرخص الغالي : يبحث في فنون الشعر العامي ، وهو مطبوع .

٢ — نتائج الاذهان في شرح الكافية البديعية : منها نسخة في مكتبة الاسكوريال باسبانيا واخرى في دار الكتب المصرية .

٣ — أغلاطي : وهو معجم بالاغلاط اللغوية الشائعة في عصره ، منه أقسام بمكتبة الاسكوريال باسبانيا .

٤ — الدر النفيس في أجناس التجنيس : منه نسخة بدار الكتب المصرية

٥ — الخدمة الجلية : وهو في وصف الصيد بالبندق .

٦ — ديوان صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء .

٧ — رسائله : طبع بعضها مع ديوانه (طبعة النجف ١٩٥٦) .

٨ — ديوان شعره : يحتوي على أكثر من عشرة الاف بيت في اثني عشر باباً ، في كل باب فصلين أو أكثر ، وجملة الفصول ثلاثون والابواب هي : الفخر والحماسة ، المديح ، الطرديات ، الوصف ، الاخوانيات ، المراثي الغزل ، الخمريات ووصف الازهار ، الشكوى والعتاب ، الاستهداء والاعتذار ، الالغاز ، الملح والاهاجي ، الادب والزهد .

والحق بالديوان « الكافية البديعية في المدائح النبوية » وهي في ١٤٥ بيتاً على وزن وقافية بردة البوصيري . وديوانه «درر النحور في امتداح الملك المنصور » .

شعره :

اشتهر صفي الدين الحلي بالشعر أكثر من اشتهاره بالنثر مع أنه قد برز في كليهما ، وعده النقاد والباحثون أشعر شعراء عصره لما امتاز به شعره من خصائص وسمات جلى صعيدي المعاني والالفاظ .

ان أغلب مدائحه في الملوك الارتقيين ، وملوك حماة ، والناصر قلاوون وعلاء الدين بن الاثير ، ولم يخرج فيها عن مدائح الذين سبقوه من وصف الممدوح بالسخاء والشجاعة والاباء وغيرها من المعاني المطروقة ، وكثيراً ما يبالغ في هذه الصفات ، من ذلك قصيدته التي مدح بها الملك الصالح بن الملك المنصور الارتقي وقد أرسلها من بغداد اليه وعظلمها (١) :

ماهبّت الريح الاّ هزّني الطرب اذ كان للقلب في مرّ الصبا أرب

ومنها :

يابن الذين غدت أيامهم عبرا بين الأنام بها الأمثال قد ضربوا

كالأسد إن غضبوا ، والموت ان طلبوا والسيف ان ندبوا والسيل ان وهبوا

ان حكّموا عدلوا ، أو أملوا بذلوا أو حوربوا قتلوا ، أو خولوا غلبوا

ـ ولصفي الدين — عدا بديعيته الكافية — عدّة قصائد في المديح النبوي لم يأت فيها بجديد ، فهي مأخوذة من السيرة النبوية التي قرأها في كتب التاريخ والسير ، ونراه يكثر فيها من الاستغفار وطلب العفو والصفح ، من ذلك قوله حينما زار المدينة المنورة : (٢)

بكم يهتدي ، يابني الهدى ولي إلى حبكم ينتسب

(١) الديوان ص ١٩٧ .
(٢) الديوان ص ٨٦ .

شعره :

اشتهر صفي الدين الحلي بالشعر أكثر من اشتهاره بالنثر مع أنه قد برز في كليهما ، وعده النقاد والباحثون أشعر شعراء عصره لما امتاز به شعره من خصائص وسمات جلى صعيدي المعاني والالفاظ .

ان أغلب مدائحه في الملوك الارتقيين ، وملوك حماة ، والناصر قلاوون وعلاء الدين بن الاثير ، ولم يخرج فيها عن مدائح الذين سبقوه من وصف الممدوح بالسخاء والشجاعة والاباء وغيرها من المعاني المطروقة ، وكثيراً ما يبالغ في هذه الصفات ، من ذلك قصيدته التي مدح بها الملك الصالح بن الملك المنصور الارتقي وقد أرسلها من بغداد اليه وتطلعها (١) :

ماهيّجت الريح الاّ هزّني الطرب اذ كان للقلب في مرّ الصبا أرب

ومنها :

يا ابن الذين غدت أيامهم عبرا بين الأنام بها الأمثال قد ضربوا

كالأسد إن غضبوا ، والموت ان طلبوا والسيف ان ندبوا والسيل ان وهبوا

ان حكّموا عدلوا ، أو أملوا بذلوا أو حوربوا قتلوا ، أو خولبوا غلبوا

- ولصفي الدين — هذا بديعيته الكافية — عدّة قصائد في المديح النبوي لم يأت فيها بجديد ، فهي مأخوذة من السيرة النبوية التي قرأها في كتب التاريخ والسير ، ونراه يكثر فيها من الاستغفار وطلب العفو والصفح ، من ذلك قوله حينما زار المدينة المنورة : (٢)

بكم يهتدي ، يا بني الهدى ولي إلى حبكم ينتسب

(١) الديوان ص ١٩٧ .
(٢) الديوان ص ٨٦ .

به يكسب الأجر في بعثه ويخلص من هول ما يكتسب

وقد أمّ نحوك مستشفعاً الى الله ، مما إليه ذنب

- ونرى صفي الدين يخصص قصائد كثيرة للغزل إلى جانب الأبيات التي جعلها بين يدي المديح ، وهو يعف في بعضها ويسف في بعضها الآخر ويصبح حليف غزوة وأسير شهوة ، مقلداً الشعراء المجان والمتهتكين ، وقد عارض ابن حجاج في بعض قصائده الفاضحة ، وأظهر فيها مفاتن الجسد بشكل صارخ ومبتذل ، ونورد هنا بيتين من غزله العفيف الرقيق : (١)

ياضعيف الجفون أضعفت قلباً كان قبل الهوى قوياً مليا

لاتحاربْ بناظريك فؤادي فضعيفان يغلبان قويا

وكان لصفي الدين ذوق جميل في الوصف ، وأداة طيعة في التصوير البارع ، فنراه يجيد في وصف الحدائق والمروج ، ومباهج القصور ، ومجالس اللهو والشراب ، وأدوات الطرب والغناء ، والحيوانات المليحة ، والطيور البديعة ، وديباجته في هذا الوصف مشرقة ، وألفاظه سهلة ، وصوره واضحة من ذلك قوله في وصف مغنية بالعود : (٢)

أشجتك بالتقريب في تغريدها فظننت معبد كان بعض عبيدها(٣)

وشدت فأيقظت الرقود بشدوها وأعارت الأيقاظ طيب رقودها

عودٌ شدّت بلسانها وبنانها حتى تشابه ضربها ونشيدها

فكأن نغمة عودها في صوتها وكأن رقة صوتها في عودها

فطنت لأبعاد الشدود فناسبت بالعدل بين قريبها وبعيدها(٤)

(١) الديوان ص ٤٠٠ .
(٢) الديوان ص ٢٧١ .
(٣) معبد بن وهب من مشهور في العصر الأموي ، نشأ في المدينة ، ولما ظهر غيوفه في الغناء رحل إلى الشام واتصل بأمرائها وارتفع شأنه ، وتوفي سنة ٨١٢٦ م .
(٤) الشدود : لعله يريد مفاتيح الأوتار .

كملت صنائع وضعها فكأنما ... ورثت أصول العلم عن داودها
تسبي العقول فصاحة وصباحة ... فتحار بين طريفها وتليدها
من لهجة مكسوبة أو بهجة ... منسوبة تحلو لعين حسودها
إني لأحسد حودها إن حانقت ... عطفيه أو ضمته بين نهودها
وأغار من لثم الكؤوس لثغرها ... وأذوب من لمس الحلي لجيدها

وعقد علاقات وثيقة مع أصقاء اكتسبهم بعد خروجه من الحلة ، مسقط رأسه ، ومدرج صباه ، ومسرح فتوته ، ومعهد أنسه وهواه ، وسكن ماردين في ظل الملوك الأرتقيين ، وتعرّف على أناس كثيرين في الشام ومصر والحجاز حين تجواله فيها ، ونظم شعراً كثيراً وقد ثبّته في الباب الرابع من ديوانه ، وسماه « في الاخوانيات وصدور المراسلات » من ذلك قصيدة أرسلها إلى الشيخ مهذب الدين محمود بن يحيى النحوي الحلي ، قال فيها : (١)

بكيت لفقد الأربع الخضر منكم ... على الرملة الفيحاء بالأربع الحُمر
فكيف بقلبي إنسان عيني ، وقد مضى ... على ذلك الإنسان حين من الدهر
سقى روضة السعدي من أرض بابل ... سحاب ضحوك البرق منتحب القطر
وحيا الحيا مغنى قضيت بربعه ... فروض الصبا ما بين رملة والجسر
ورب نسيم مر لي من ديارك ... ففاح لنا من طيّه طيّب النشر

(١) الديوان ص ٢٨٥ .

وأذكر لي عهداً ، وما كنت ناسياً ... ولكنه تجديد ذكر على ذكر

وشارك في فن الرثاء ، فله نحو ثلاثين قصيدة ، رثى بها الملوك والأمراء والاقرباء والأصدقاء ، وقد بان عليه الجزع والألم ولاسيما في رثاء خاليه صفي الدين بن محاسن وجلال الدين عبدالله بن حمزة بن محاسن ، وتراه يتفنن في بعض مراثيه كما فعل في قصيدته التي رثى بها عماد الدين اسماعيل ابن علي صاحب حماة سنة ٧٣٢ هـ ، مسمطاً لقصيدة ابن زيدون النونية ، قال في أولها (١) :

كان الزمان بلقياكم يُمتّينا ... وحادث الدهر بالتفريق يأسينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا ... أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

ولصفي الدين أبيات ومقطعات في الادب والحكم ، وفي الزهد والتقشف يمكن الرجوع اليها في ديوانه .

ان شعره يتراوح بين مجموعة صادرة عن فطرة وطبع سليم ، وأخرى غلب عليها التكلف والصنعة ، ويبدو أنه تابع في المجموعة الثانية أولئك الذين قيدوا أنفسهم بالصناعة وأراد أن يتفوق عليهم فجنس وطابق واقترس وضمن وقابل ونثر وطوى وقسم ، وتعمد التشبيه والاستعارة ، وتلاعب بالحروف ، فأهمل واعجم ، والتزم مالم يلزم ، وبنى أحياناً على لفظ واحد يردده في روي كل بيت مع اختلاف المعنى ، وابتدع الموشح المضمن مثل قوله (٢) :

وحقّ الهوى ماحلت يوماً حسن الهوى ... ولكنّ لجسمي في المحبة قد هوى

(١) الديوان ص ٣٥٩ .
(٢) الديوان ص ٤٥٣ ، وانظر الأبيات المضمنة في ديوان أبي نواس ص ٢٢٧ .

٨٦

وما كنت أرجو وصل من قتلي النوى
واضنى فؤادي بالقطيعة والنوى
ليس في الهوى عجب
ان أصابني النصب
(حامل الهوى تعب
يستفزه الطرب)
آخو الحب لاينفك صباً مبتلى
غريق دموع قلبه يشتكي الظما
لفرط البكا قد صار جلداً واعظما
فلا عجب أن يمزج الدمع بالدما
الغرام انحلة
إذ أصابه مقتله
(ان بكى يحق له
ليس ما به لعب)

أما شعره الذي سلم من الصنعة والتكلف فيتميز برقة الالفاظ وسهولتها ، ووضوح المعاني وصحتها ، من ذلك قوله (١)

قد نشر الزنج أعلامه
وقال : كل الزهر في خدمتي
لو لم أكن في الحسن سلطانه
ما رفعت من دونه رايتي
فقهقه الورد به هازئاً
وقال : ماتحذر من سطوتي

(١) الديوان ص ٥٥٤ .

د- ابن زيلاق الموصلي :

ابن زيلاق الموصلي ٦٠٣ — ٦٦٠هـ

برز في الموصل — المدينة التي ثوى فيها الأديب المشهور أبو تمام — العشرات من الشعراء، أمثال: مخلّد بن بكّار، والسري الرفّاء، وابن حمدان وابن مُشهر، وابن أبي عصرون، وابن الأرْدَحل، وابن الحلاوي وابن حَدْلان وابن دانيال .. وابن زيلاق الذي نحسن بصدد دراسة حياته وشعره (١).

هو محيي الدين يوسف بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن ابراهيم الهاشمي الموصلي المعروف بابن زيلاق، فهو عربي الأصل، ينتهي نسبه الى العباس ابن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد أمسكت المصادر عن ذكر نشأته ودراسته وسيرته . واكتفت بذكر السنة التي ولد فيها وهي سنة ٦٠٣هـ بمدينة الموصل . وعمله وهو كتابة الانشاء للدولة . ومقتله الذي كان في العاشر من شعبان سنة ٦٦٠هـ حين ملك هولاكو الموصل . وبعث الرعب والفزع في نفوس قاطنيها . وقتل بالكثيرين منهم .

تذكر كتب التاريخ أن ابن زيلاق كان شهماً غيوراً . وحينما داهم المغول الموصل تألم كل الألم ووقف بجانب ملكه الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ في الدفاع عن مدينته . وكان قائد المغول يسمى أنداغو . ولما طال حصار الموصل وتعذّرت الأقوات طلب الملك الصالح الأمان له ولأهل البلد . وتردّدت الرسل بينهما . فأجاب الى ذلك . ودخل العسكر إلى البلد وقبضوا على الملك الصالح . وقتلوا والده علاء الدين . وعلقوا رأسه على باب الجسر . ومن جملة من قتل في هذه الحادثة محيي الدين بن زيلاق (٢).

(١) ترجمته في ذيل مرآة الزمان ٤: ٥١٣ — ٥٢٤ الذكرة البغدادية ص ١١٢ ، فوات الوفيات ٤: ٣٨٤ ، عيون التواريخ ٢٠: ٢٧٩ ، البداية والنهاية ١٣: ٣٨٤ ، الحوادث الجامعة ص ٣٤٨ ، عبر الذهبي ٥: ٢٦٢ ، شذرات الذهب ٥: ٣٠٤ ، عقود الجمان للزركشي (مخطوطة الفاتيكان ٤٣٣٤) ص ٣٥٩ .

(٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٤٥٠ .

واذا كانت المصادر قد غبنت ابن زيلاق في تفصيل حياته وسيرته . فانها لم تغبنه في أدبه، خاصة كتاب ذيل مرآة الزمان لليونيني . وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . اذ أوردا له أكثر من مئتي بيت من الشعر إلى جانب المقطوعات النثرية .

أكثر ابن زيلاق من ذكر مدينة الموصل في شعره . وتغنى بها . والتي عليها، حيث نراه يقول : (١)

وكلّ البلاد . لها الفخار الأفضل ... وعلى محاسن الحدباء مشرقةٌ على
ياساحةَ الحدباء تربك إثمدٌ ... للناظرين . فما الدّخول فحومل ؟
حبي أحاول غيرَها . أو أبتغي ... عوضاً عن الأوطان أو أتبدّل
فمن الذين عهدتهم بفنائها ... أهلي وجيراني بحسن اشتمل

وكان كثير التردد على ديار الشام . لاسيما دمشق . ويبدو في الجامع الأموي . وله في وصف هذه المدينة وبيان جمالها ومحاسنها وأطايب أجوائها قصيدة لطيفة . نذكر منها هذه الأبيات : (٢)

أنّى التفتّ فجدولٌ متسلسلٌ ... أو جنّةٌ مرضيةٌ أو جوسقٌ
يبدو لطرفك حيث مالَ حديقةٌ ... غناء نور النّور منها يشرق
يشدو الحمام بدوحها فكأنما ... في كلّ غوطةٍ منه عودٌ مورق
واذا رأيتَ الغصنَ تُرقصه الصبا ... طرباً رأيتَ الماءَ وهو يُصفّق

لقد حظيت مدينة دمشق — فيما أرى — أكثر من غيرها من الحواضر الاسلامية بقصائد شعرية . في وصف مباهجها ومفاتنها وخيراتها . (٣) ولم يكن غريباً أن يشارك ابن زيلاق الموصلي قائليها في هذا الوصف فهو يراها جنة وارفة

(١) فوات الوفيات ٤: ٣٩٤ .
(٢) المصدر ٤: ٣٨٤ .
(٣) يذكر كتاب (نزهة الأنام في محاسن الشام) لابن البقاء عبدالله بن محمد السعدي .

الظلال، تنساب خلالها الجداول، وتعبق في ربوعها فوائح الأزهار وتشدو على أفنان أشجارها الأطيار. وقد أبدع في تصوير منظر الغصن الراقص يداعبه ريح الصبا وتصفيق الماء المنساب بخريره الساحر.

ولابن زيلاق الموصلي شعر في الغزل جارى فيه شعراء عصره في خطاب المذكر، وقد بدا عليه البرود ومسحة الصنعة مثل قوله: (١)

ياقمراً أصبحتْ عباستُه	تنهب ألبابنا وتسترق
تجمعتْ فيكَ للورى فتنٌ	على تلافِ النفوسِ تتفق
طرفٌ كحيلٌ، ووجنةٌ كميت	حمرةُ دمعي، وميسمٌ يقق
جالتْ على عطفهِ ذوائبه	كالغصنِ زانتْ فروعه الورق
رأوكَ لي جنةٌ معجلةٌ	ما وجدوا مثلها ولا رزقوا
هم حسدوني عليكَ فاختلفوا	بكلِّ زورٍ عليكَ وافتعلقوا
سعوا بتفريقنا فلا اجتمعوا	على وصالٍ يوماً ولا اتفقوا
فأينَ كانوا وأدمعي بددٌ	تركضُ في وجنتي وتستبق
ومقلتي حشوها السُّهادُ واح	ناه ضلوعي تعادها الحرق

ان أغلب شعره الذي وصل الينا في الغزل عفيف وبعيد عن الفحش والبذاءة والرذيلة، فهذه القصيدة التي ذكرنا طرفاً منها تتجلى فيها الوحدة الموضوعية، وحسن انسجام الكلمات من خلال الموسيقى المحببة المتلائمة مع تفعيلات البحر المنسرح.

وقد أدخل ابن زيلاق بدلوه مع الشعراء الذين نظموا الموشحات التي راج سوقها بعد القرن السادس للهجرة، وشاع نظمها في المشرق بعد شيوعها في المغرب، ولكنه — في رأينا — لم يوفق في هذا اللون من النظم كما وفق في نظم الشعر العمودي. الذي جزءاً من موشحة له (٢):

(١) فوات الوفيات ٤: ٣٨٨.
(٢) فوات الوفيات ٤: ٣٩٢.

م/٧/أ.ع.

حثَّ شمسَ الكؤوسِ يابدر	فالندامى نجوم
واسقنيها كأنَّها تبر	من بناتِ الكروم
ضحكت في ثغورها الزهر	ببكاء الغيوم
رقصت بأطيبِ اللحنِ	صادحاتُ الشجرْ
ناطقاتٌ بألسنٍ عجمٍ	طابَ شربُ الخمرْ
حثَّها بيننا رشاً وسنان	نلتُ منه الأمان
ناعسُ الطرفِ بابليُّ الأجفانْ	باسمٌ عن جمان
قد سكرنا من لحظهِ الفتانْ	قبلَ خمرِ الدنان
ربَّهُ خمرٍ شربت من جفنِ	واجتنيت الزهر
من خدودٍ تحمى من اللثمِ	بسيوفِ الخطور

ولابن زيلاق آيات في الحكمة تقرأ منها السطحية كقوله(١):

فالدهر لايبقى على حالاتهِ	فوجودٌ أحياناً وطوراً يعدل
مرراً فكلُّ مُدةٍ من بعدها	فرجٌ، وكلُّ عسيرٍ أمرٍ يسهل

أما نثره فهو يجري على طريقة القاضي الفاضل التي تعتمد على البديع ولا سيما الجناس، كما تعتمد على التنظير، من ذلك قوله في رسالة (٢): «فقدمناها، والفصل ربيع، ومنظر الروض بديع، والرُّبى ممخضرة أكنافها، ناعمة أعطافها، تبكي بها عيون السحاب فتبسم، وتخلع عليها ملابس الشباب فتتقمص وتتعمم. فما أتينا على مكان إلا وجدنا غيره أحقَّ بالثناء وأجدر، ولا أقل بدر من الزهر إلا برزت شمسٌ فقلنا هذا أكبر حتى اذا بلغت النفس أمنيتها، وأقبلنا على دمشق فقبلنا ثنيتها، رأينا منظراً يقصر

(١) فوات الوفيات ٤: ٣٩٥.
(٢) فوات الوفيات ٤: ٣٩٦.

عنه المتوهم، ويملأ عين الناظر المتوسم. ظبي ظليل، ونسيم عليل ومغنى بنهاية الحسن كفيل».

هذا ابن زيلاق الموصلي، شاعر لامع ، وناثر بارع ، ولكن حظه غير راجح ، وهو القائل (١):

واذا الفتى قلّت عنايةُ حظّـــه كانت محبته ذنوباً أجمـــع

(١) ذيل مرآة الزمان ٢ : ١٧ .

ه- شهاب الدين التلعفري:

شهاب الدين التلعفري ٥٩٣ — ٦٧٥هـ

شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني. (١) ولد في تل أعفر وقيل في الموصل في الخامس والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٩٣للهجرة. لقب بالتلعفري نسبة إلى تل أعفر. وهي مدينة بين الموصل وسنجار في شمال العراق.

تلقى التلعفري العلوم والآداب في الموصل. واتصل بعلمائها وأدبائها وأخذ عنهم، وتفتحت قريحته الشعرية ولما يتجاوز العقد الثاني من عمره. وكان ذكياً فطناً، حافظاً للأشعار وأيام العرب وأخبارها (٢).

شد التلعفري رحاله واتجه صوب الشام، واتصل بالملوك الأيوبيين. ومدحهم، وأثنى عليهم. ونال عطاءهم منهم الملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل صاحب دمشق (ت٦٣٥هـ) وكان هذا الملك شاعراً جواداً، يعجبه الشعر الجيد، ويصل صاحبه بصلات سنية، وكان نصيب التلعفري من هذه الصلات كبيراً، ولكنه أتلفها في حانات الخمر وعلى موائد الميسر. وقد صرح بذلك في شعره فقال: (٣)

أقلعت إلا عن العقار ... وليت إلا من القمار
فالكأس والقمر ليس يخلو ... منها يميني ولا يساري

ضجر الملك الأشرف من هذا السلوك المنحرف، وطلب منه أن يُحسن سيرته، ويقلع عن معاشرة أرباب الخلاعة والمجون، ويترك الخمر، ويتصرف

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٥: ٢٥٥؛ فوات الوفيات ٤: ٦٢؛ وفيات الأعيان ٧: ٤٠؛ ذيل مرآة الزمان ٣: ٢٢٨؛ البدر السافر ص ١١٧؛ تاريخ ابن الفرات ٧: ٧٦؛ النجوم الزاهرة ٧: ٢٥٥؛ المختصر في أخبار البشر ٢: ٣٢٠؛ البداية والمفلوكون ص ٨٨؛ كنز الدرر ٧: ٣٩٨؛ الأدب في بلاد الشام ص ٣٥٩ تاريخ الأدب العربي في العراق ١: ٣١٢. وقد طبع ديوانه في بيروت سنة ١٣١٠هـ وأعيد طبعه سنة ١٣٢٦هـ.
(٢) النجوم الزاهرة ٧: ٢٥٥.
(٣) الديوان ص ١٨.

عن الميسر، ولكنه لم يرتدع وبقي على ماهو عليه، سادراً في غيّه وضلاله وعبثه، مما دعا إلى غضب الملك عليه وطرده من مملكته.

انتقل إلى حلب، واتصل بملكها الناصر يوسف بن محمد بن غازي (ت٦٤٨هـ) وحظي باكرامه، وخصص له مبلغاً من المال يتقاضاه "كل" شهر. ونصحه بترك المقامرة التي حرمها الإسلام لما فيها من ضرر وكذلك طلب منه الاقلاع عن شرب الخمرة، فلم يأخذ بالنصيحة. وظل يقامر بكل شيء يملكه، حتى خفافه وثيابه. وقد تهكم به الشاعر شرف الدين سليمان بن بنيمان الإربلي (ت٦٨٦هـ) في مجلس الملك الناصر. وقال قصيدة عرض فيها مقامرته بخفافه وثيابه. واعتذر في خاتمة قصيدته من هجاء هذا الشاعر "المنحرف عن جادة الرشد والصواب" (١).

ولم تتغير أخلاق الشاعر ولم يهجر المقامرة، وساءت حالته، حتى بات يعيش في فقر مدقع. وأمره الملك الناصر أن يقف عند حدّه، وتُوُدي في حلب: من قامر مع الشهاب التلعفري قطعت يده (٢)، وحينما سمع هذا النداء ضاقت الأرض به وحشي العواقب. وقال (٣):

ينشرح الصدر لمن لاحبني ... والأرض لي ضيقة فروجها

خرج التلعفري من حلب — بعد أن قطع الملك الناصر المعونة عنه — وأخذ يتنقل في ديار الشام ومصر مستجدياً بشعره. وقد وخط الشيب مفرقه وأذبلت جسمه الخمرة وسهر الليالي. وأدرك أن الذين عاشرهم ونادمهم لا خير فيهم ولا نفع. فقال: (٤)

سلام" على عصر الشباب الذي مضى ... وروحي بضافي ضلّه ما تملت
عرفت بها هذا الزمان" وأهله ... فرحت بشيبي غافراً "كل" زلّة

(١) فوات الوفيات ٢: ٥٧؛ النجوم الزاهرة ٧: ٣٧٢.
(٢) فوات الوفيات ٤: ٦٢.
(٣) النجوم الزاهرة ٧: ٢٥٧.
(٤) الديوان ص ٨.

بلوت "الورى خُبراً فلم أرَ فيهم خليلاً" سديداً عنده سد خلتي

واستقر الشاعر — بعد تعب وضنى — في حماة، واحتمى بالملك المنصور محمد بن محمود (ت ٦٨٣هـ) ونادمه وسامره، وقدّم بين يديه مدائحه ونال جوائزه.

وحينما تجاوز الثمانين من العمر وأحنت السنون ظهره، وأدرك أن نهايته قد قربت، قال: (١)

أحماة ان عهودَ أهلكِ أحكمتْ أسبابُها عندي، فليستْ" تنقص
لكنما أزفَ" الرحيلُ وها أنا والعيسُ تحدُي مُسْنَدٌ ومعرَّض
أرضٌ" أروح بغيرها متعوِّضاً أترى ترى عيني بمنْ" تتعوَّض!

وندم على أفعاله السابقة، وتصرفاته الشاذة التي أغاضت الكثيرين، ورد" على أولئك الذين سخروا منه ورموه بالمعصية، فقال: (٢)

من قال عني بأنني يوم القيامة أحشر؟
وانني بلذنوبي إلى جهنم أحشر؟
مر ياجهول، ودعني أنا بربي أخير

إختلفت الروايات في المكان الذي توفي فيه، فقيل: ارتحل إلى نصيبين ومكث فيها قليلاً" وتوفي في ثالث عشر سنة ٦٧٥ للهجرة، (٣) وقيل: توفي في عاشر شوال سنة ٦٦٥ للهجرة بمدينة حماة. (٤) وأنشد قبيل وفاته: (٥)

إذا أمسى فراشي من تراب وبيتُ" جاورَ" الرَّبَّ" الرحيم
فهنّوني أخلائي وقولوا لك البشرى قدمتَ" على كريم

(١) الديوان ص ٢٤.
(٢) ذيل مرآة الزمان ٣: ٢٢٨.
(٣) ذيل مرآة الزمان ٣: ٢٢٨.
(٤) وفيات الأعيان ٧: ٤٥، النجوم الزاهرة ٧: ٢٥٥.
(٥) ذيل مرآة الزمان ٣: ٢٢٨.

شعره:

وصل إلينا ديوان شهاب الدين التلعفري، وهو صغير، لايحوي كل شعره، اذ نجد في المصادر مقطوعات غير واردة في الديوان. وأبرز ما فيه من أغراض: الغزل، والحنين، والوصف، والحنين إلى الوطن ومطالع القصائد في المديح.

أما غزله فرقيق وحبيب إلى النفس، يكثر فيه من ذكر القدود والخدود والألحاظ والحواجب وغيرها من مواطن الحسن والجمال. من ذلك قوله: (١)

رشأ الثنى والمعاطفِ ألعس الـ ـراشفِ يُصبي طرفُه حين يرمق
حميَ بحسام اللحظ خدّاً مورّداً غابت منه أكمام الشقيق تشقق
له ناظرٌ" في صدغه وهو أسودٌ عدوٌ" لأربابِ الصبابةِ أزرَق

لقد وصف الشاعر ثنى المحبوب في سيره، كما وصف فمه ومعرفه وخدّه وجمال خلقها، وبديع صنعها، وأبان عن أثرها في النفوس وفعلها في حيات القلوب. ومن شعره في هذا المجال قوله: (٢)

حميتَ" شقيقَ" الخدِّ" بالقلبِ الكميّ" ولثمتُ رمحَ" القدِّ بالمهجة النجلا
وأوترتَ" قوسَ" حاجبكَ" فقوّمتَ" من النظمِ السامي إلى مقلتي نبلا
عجبت لجفنكَ" التي تشطتْ" لنا اقتلنا، وهي المضمخة الكسلى

وغالباً ما يقترن الغزل عنده بالخمرة وبساحبها وهو أحد رواد الفلسفة الخيامية التي تدعو إلى ارتشاف الخمرة والتمتع بملذات الحياة قبل فوات

(١) الديوان ص ٢٥.
(٢) الديوان ص ٥٠.

الاوان، وقد صرف من أجلها — إلى جانب اليسر — ماملكت يده
يقول في إحدى قصائده :(١)

نهاري كلّه قلقٌ وفكرٌ ... وليلي كلّه أرقٌ وذكرُ
تقسّمني الهوى كمداً وحزناً ... فآمرهما لمختلفٍ مستمرُ
فقمٌ تخطبُ عروساً بنت كرمٍ ... لها الاموال والالباب مهرُ (٢)
عجوزٌ قد أسنّتْ وهي بكرٌ ... ومن عجبٍ عجوزٌ وهي بكرُ (٣)
مُفرحةٌ يفرُّ الهمُّ منها ... فليس يضمّها والهمّ صدرُ
إذا برزتْ وجنح الليلِ داجٍ ... تبلّجَ من سناها فيه فجرُ
غنيتُ بكأسها وبها . ولمّا ... ومن هذين لي ورقٌ وتبرُ (٤)
يطوف بها علينا بدرُ تمٍّ ... منيرٌ عشرة خمسٌ وعشرُ
لنا بكؤوسه وبمقلتيه ... كما حكم الهوى سكرٌ وسُكرُ (٥)
ترفُّ بها اليه ، وهي بيضٌ ... ويأخذها الينا وهي حمرُ

ذكر في هذه الابيات أحدى لياليه الساحرة التي طرح فيها همومه وأحزانه ووصف الخمرة وصفاءها وبهاءها وهي انذار بيد غلام جميل الطلعة ، بهيج المحيا ، لم يتجاوز عمره خمس عشرة سنة . والملاحظ أنه لم يتجاوز في ذكره للغلام الاعجاب بالشكل الساحر ، والجسم الباهر . ولم يصل الى حد المجون والتهتك والانزلاق في مهاوي الرذائل والفواحش التي نجدها عند غيره من الشعراء المولعين بالغلمان في عصره .

وقد أثرت الطبيعة ومباهجها في التلعفري ، فراح يصفها في شعره ، ويرسم

(١) الديوان ص ١٤ .
(٢) العروس وبنت الكرم : من أسماء الخمر .
(٣) العجوز : الخمر المعتقة .
(٤) الورق : الدراهم الفضية .
(٥) السكر : ليد الخمر وفي التنزيل : تتخذون منه سكراً .

الاوان، وقد صرف من أجلها — إلى جانب اليسر — ماملكت يده
يقول في إحدى قصائده :(١)

نهاري كلّه قلقٌ وفكرٌ ... وليلي كلّه أرقٌ وذكرُ
تقسّمني الهوى كمداً وحزناً ... فآمرهما لمختلفٍ مستمرُ
فقمٌ تخطبُ عروساً بنت كرمٍ ... لها الاموال والالباب مهرُ (٢)
عجوزٌ قد أسنّتْ وهي بكرٌ ... ومن عجبٍ عجوزٌ وهي بكرُ (٣)
مُفرحةٌ يفرُّ الهمُّ منها ... فليس يضمّها والهمّ صدرُ
إذا برزتْ وجنح الليلِ داجٍ ... تبلّجَ من سناها فيه فجرُ
غنيتُ بكأسها وبها . ولمّا ... ومن هذين لي ورقٌ وتبرُ (٤)
يطوف بها علينا بدرُ تمٍّ ... منيرٌ عشرة خمسٌ وعشرُ
لنا بكؤوسه وبمقلتيه ... كما حكم الهوى سكرٌ وسُكرُ (٥)
ترفُّ بها اليه ، وهي بيضٌ ... ويأخذها الينا وهي حمرُ

ذكر في هذه الابيات أحدى لياليه الساحرة التي طرح فيها همومه وأحزانه ووصف الخمرة وصفاءها وبهاءها وهي انذار بيد غلام جميل الطلعة ، بهيج المحيا ، لم يتجاوز عمره خمس عشرة سنة . والملاحظ أنه لم يتجاوز في ذكره للغلام الاعجاب بالشكل الساحر ، والجسم الباهر . ولم يصل الى حد المجون والتهتك والانزلاق في مهاوي الرذائل والفواحش التي نجدها عند غيره من الشعراء المولعين بالغلمان في عصره .

وقد أثرت الطبيعة ومباهجها في التلعفري ، فراح يصفها في شعره ، ويرسم

(١) الديوان ص ١٤ .
(٢) العروس وبنت الكرم : من أسماء الخمر .
(٣) العجوز : الخمر المعتقة .
(٤) الورق : الدراهم الفضية .
(٥) السكر : ليد الخمر وفي التنزيل : تتخذون منه سكراً .

١٠٤

المناظر الخلابة التي وقعت عينه عليها في الشام ومصر بريشة دقيقة وألوان زاهية ، وكانت دمشق من أحب المواضع الى نفسه ، من ذلك قوله (١) :

تلك الجنان التي حيث التفت ترى ... قصراً مشيداً به حورٌ وولدان
تدعوك فيها اللذات أربعةٌ ... نبع الحياة بها ما فيه خسران
ظلٌ ظليلٌ ، وماءٌ باردٌ خدقٌ ... وجوسقٌ مشرف عالٍ ، وريحان(٢)

أما مدائحه في الشخصيات والملوك الذين حظي بلقياهم ونال صفحهم وحنانهم فلا أثر لها في ديوانه ، وكل ما وصل الينا موشحة بعث بها الى شهاب الدين العزازي وأبياتاً أرسلها الى صديقه بمصر عز الدين بن أسيتا يسأله فيها مساعدته ، وهي (٣) :

بأبي أنتَ ، ياخليلي ، وأمي ... أنتَ قوسي إذا رميتُ وسهمي
أنتَ ، والله ، سيدي لي حسامٌ ... فيه للنائبات أعظم حسم
كيف أخشى ذلي وفي يمناك عزٌ ... ماترقتْ اليه همة نجم
نظمتْ فيكَ للمعالي عقوداً ... معجزاتٌ جميعُ نثري ونظمي
الليالي عندي ظلامٌ وظلمٌ ... بعد ذا اللّبس وذاك الظلام(٤)

لقد عبر في شعره عن ذاته خير تعبير ، ويكاد يكون هذا الشعر جزءاً من سيرة حياته التي قضاها في اللهو والعبث ، والجري وراء دراهم معدودات لينفقها على موائد الخمر والميسر ، والتسلي ، في أحضان الطبيعة مع رفاقه الذين شذوا عن سبل الرشاد ، وطاب لهم الفسق والفساد .

وشعره على العموم سهل مأنوس ، لا غموض فيه ولا ابهام ، وكان محبو الشعر يحفظونه ويتناقلونه ، روى ابن حجة الحموي أن الأديب نور الدين علي بن سعيد الاندلسي حينما ورد الى الشام أجتمع بالشاعر

(١) الديوان ص ٤٥ .
(٢) خدق : كثير ، الجوسق : الحصن ، وقيل القصر .
(٣) الديوان ص ٤١ .
(٤) اللبس : بتثليث اللام ، سيره أو سواد في باطن الشقة يتحير ، الظلام : ابريق الاسنان

المشهور بهاء الدين زهير ، وسأله أن يوجهه الى طريقة يتعلم بها نظم الشعر الغرامي الرقيق فقال له (١) : «طالع ديواني الحاجري والتلعفري ، وأكثر المطالعة فيهما ، وراجعني بعد ذلك ، فغاب عنه مدة ، وأكثر من مطالعة الديوانين الى أن حفظ غالبهما ، ثم أجتمعا بعد ذلك وقال أكرا في الغراميات» ، وهذا مايؤكد أن شعر التلعفري قد راج سوقه وكثر طالبوه ، وارتاد مناهله الدارسون

ولم يستطع أن يبرىء شعره من الزخارف البديعية والصور البيانية التي عم أستعمالها وشاع ايرادها في النظم ، وبخاصة الجناس والطباق والتضمين وقد أورد ابن حجة الحموي أمثلة كثيرة من شعره مستشهداً بها على الفنون البديعية التي تناولها في خزانته ، فمن الجناس قوله (٢) :

أنت خالٌ مما يخامره قلبي ... من غرير له على الخد خال .
كلما عزّ زاد في ذلي وحالتْ ... لي فيه ، مع الزمان ، الحال

ومن الطباق قوله (٣) :

كان عهدي بالخمر ، وهي حرامٌ ... فبماذا صارتْ لديكَ حلالا؟
أنا قصدي تقبيله ارشاداً ... كان رشفي رضابه ، أم ضلالا؟
حار مني في شرح حاليه فكري ... كيف يسطو ليثاً ويعطو غزالا؟
إن أطعت الغرام فيه ، فإني ... قد عصيتُ اللوامَ والعذالا

ومن اقتباس مصطلحات الحديث قوله : (٤)

وانقلْ أسانيد الهوى عن أهلهِ ... فحديث أهل العشق أنت أمينُه
أحد الحديث عن الحبيب مكرراً ... أخبارُه ، فالصبُّ هذا دينُه

ومن الاقتباس اللغوي قوله (٥) :

عندي جوى يذر الفصيح مُبلّداً ... فاترك مقصّله ، ودونك مجمله

(١) خزانة الأدب ص ٨ .
(٢) الديوان ص ٣٢ .
(٣) ينظر تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والامارات ٣٩٣ — ٣٩٦ .
(٤) الديوان ص ٨
(٥) الديوان ص ٣٣

القلب ليس من الصحاح فيُرتجى إصلاحُه ، والعين سحبٌ مهملة

فقد ذكر المعاجم وكتب اللغة المشهورة وهي : الصحاح للجوهري ، والفصيح لثعلب ، والمفصل للزمخشري ، والمجمل لابن فارس ، والعين للخليل .

ومن الأقتباس العروضي قوله : (١)

كم قد مضى ليلٌ العذولِ مديده برقيبه متقاربٌ وسريعٌ

والتلعفري من المولعين بالكنايات من ذلك قوله (٢) :

وجعلتَ حظي منك خالاً أسوداً وأذقتني موتاً كخدّكَ أحمرا

فسواد الخط كناية عن سوء الحال ، والموت الأحمر كناية عن الشدة .

لقد كان التلعفري شاعراً بارزاً ، (٣) يمتلك قدرة جيدة على التعبير عن مشاعره وأحاسيسه . وقابلية في توفير الموسيقى العذبة لشعره المتأتية من الموائمة بين الألفاظ من جهة وحروف الالفاظ من جهة أخرى إلى جانب الملاءمة بين الألفاظ والمعاني سواء كان ذلك في القصيد أم في الموشح . بحيث استهوى القارىء وتبعده عن السأم الذي يلاقيه في الشعر الذي أصابه العقم وخمود العواطف وخمود المشاعر .

---

(١) الديوان ص ٢٤

(٢) الديوان ص ١٧ .

(٣) ينظر تأريخ الأدب العربي ، عصر الدول والامارات ٣٩٣ — ٣٩٦

الفنون النثرية :

ابرز الكتاب :

١- ابن حجة الحموي :

تقي الدين بن حجة الحموي ٧٦٧ — ٨٣٧هـ

تقع مدينة حماة في شمال سوريا ، لها تاريخ عريق ، وكان لها بعد الفتح الاسلامي دور بارز في مشاركة المدن المشهورة الأخرى في الحركة الفكرية ، وانجاب الكثيرين من العلماء والأدباء والمؤرخين ، وكان ابن حجة الحموي واحداً منهم (١) .

ولد تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله المعروف بابن حجة في حماة سنة ٧٦٧ للهجرة ، وكانت أسرته محبة للعلم والمعرفة ، فوجهت والدها نحو الدرس والتحصيل ، وتتلمذ على تقي الدين بن التوزي فقيه حماة وقاضيها ثم ارتحل في طلب العلم إلى الموصل ودمشق والقاهرة .

وكان ابن حجة يشتغل في مطلع حياته — إلى جانب مثابرته على قراءة الكتب — بعمل الحرير وعقد الازرار ، وبعد ان ازدادت دائرة معارفه وتفتحت أمامه غرسه بدأ بتأليف الكتب في مختلف الفنون ، ولاسيما في الأدب والنقد والبلاغة والتاريخ .

واشتغل في دواوين الدولة في الشام ومصر ، واكتسب أصدقاء كثيرين من أمثال الاديب صدر الدين بن الأدمي الذي ولي رئاسة ديوان الانشاء بدمشق ، وهو الذي سفره إلى جمع مختارات من شعر برهان الدين القيراطي شاعر مصر في زمانه سماه «تحرير القيراطي» ، وناصر الدين محمد بن البارزي الذي اشتغل برئاسة ديوان الانشاء بمصر ، وهو الذي أوحى اليه بنظم قصيدته «البديعية» التي عارض بها بديعيتي صفي الدين الحلي وعز

(١) ترجمته في الضوء اللامع ١١ : ٥٣ ، حسن المحاضرة ١ : ٥٧٣ ، البدر الطالع للشوكاني ١ : ١٦٤ ، الدرات الذهب ٧ : ٢١٩ ، آداب اللغة العربية ٣ : ١٢٥ ، تاريخ الأدب العربي في العراق ١ : ٨٢ ، النقد الأدبي في العصر المماليكي للدكتور عبد العزيز عتيقة ص ١٥٢ ، تقي الدين ابن حجة الحموي تأليف محمود رزق سليم ، ابن حجة شاعراً وناثراً تأليف محمود ريداوي . تاريخ الأدب العربي في العراق ١ : ٨٢ .

الدين الموصلي.وبدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني أحد أعلام النحو في زمانه وشهاب الدين بن حجر العسقلاني الاديب الشاعر.

وقد بلغ ذروة مجده الأدبي في القاهرة حيثما كان منشيء الديوان،ولا عجب فقد تفيأ ظل السلطان ورئيس الديوان ،ونعم بولاء تلميذه شمس الدين النواجي الذي بلغ من حبه لشيخه أن نسخ عنه كتابه «قهوة الانشاء» يثني عليه به وهذا مايدل على ما كان بين الشيخ وتلميذه من مودة وصحبة، والغريب أن النواجي انحرف عنه بعد ذلك الاختصاص وصنف «المحجة في سرقات ابن حجة (١)» وزاد في التحامل عليه.

عاد ابن حجة في أخريات أيامه إلى بلده حماة وبقي فيها إلى أن وافته المنية في خامس عشر من شعبان سنة ٨٣٧هـ. وقد ذكر في كتابه «تأميل الغريب» أنه أوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان:

ياغافراً الزلات ،يامن عفوه يتهلل بالرحمة من فوق السحب
بيتك قد جاورته بحفرتي وأنت أوصيت بالجار الجنب (٢)

آثاره :

اشتغل ابن حجة في التأليف والتصنيف ، ووضع كثيراً من الكتب والرسائل ومختارات الشعر والنثر ، بعضها طبع ، وبعضها الآخر لايزال محفوظاً ومن أشهر كتبه مايأتي : —

١ — خزانة الأدب : شرح فيه بديعيته التي مدح بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — ضمّنَ كلَّ بيت من أبياتها البالغة ١٤٢ بيتاً نوعاً من أنواع البديع ،وقد استكثر من الأمثلة الشعرية والقضايا الأدبية ،حتى أصبح سفراً ضخماً (مطبوع).

(١) توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية رقم ١٢٧٩ ادب .
(٢) الجار الجنب : جارك من غير قومك .

٢ — ثمرات الاوراق : فيه مجموعة قيمة من الشعر والحكايات والروايات والرسائل الشرية جمعها من كتب مختلفة (مطبوع).

٣ — كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام (مطبوع).

٤ — تأميل الغريب ،طبع لعهد سدسه مع ثمرات الاوراق.

٥ — قهوة الانشاء: مجموع رسائله ومكاتباته ، مخطوط بدار الكتب المصرية والأسكوريال .

٦ — الثمرات الشهية في الفواكه الحموية: مجموعة من أشعاره، مخطوط بدار الكتب المصرية والاسكوريال.

٧ — ثبوت الحجة على الموصلي والحلي :نقد لبديعيتي صفي الدين الحلي وعز الدين الموصلي، منه نسخة في مكتبته خطـــا.

٨— مجرى السوابق : قصائد في الخيل والسبق ،بعضها له ، وبعضها لابن نُباتة، منه نسخة في برلين.

٩ — تغريد الصادح : منه نسخة في برلين .

وهناك كتب أخرى ذكر أسماءها السخاوي في كتابه الضوء اللامع(١).

شعره :

عالج ابن حجة نظم الشعر في عمر مبكر ، وقد وصل إلينا شعره الذي نظمه قبل بلوغ الاربعين من العمر ، وقيّده في ديوانه الموسوم «بالثمرات الشهية» أما شعره الذي نظمه بعد الاربعين فلم يصل إلينا منه إلا قليل وهو متناثر في كتبه المختلفة .

ويتوزع شعره بين المديح ، والغزل ، والوصف ، والحنين والشوق ، والأحاجي والألغاز ، والاخوانيات .

(١) الضوء اللامع ١١ : ٥٤ .

مدح النبي محمد — صلى الله عليه وسلم — بقصائد طويلة، تناول فيها سيرته وصفاته وأخلاقه وما تحلى به من كرم الطبع ولطف الشمائل، وفي ديوانه «النفحات الشهية» أربع قصائد احداها البديعية ومطلعها:

لمن قل ابتدا مدحكم يا أعرب ذي سلم
براعة تستهل الدمع في العلم

ولامية عارض بها «بانت سعاد» لكعب بن زهير ومطلعها:

قل قاتلي لعيون الهيل تشهيل وما لرقي عند الخد تقبيل

وقافية ومطلعها:

آغر في أفنان وجدي بكم عشقا
فلا تذكروا من بعد تغريدي الورقا

ومربعة سماها «أمان الخائف» ومطلعها:

شدت بكم العشاق لما ترنموا
فغنوا وقد طاب المقام وزمزم

وفيها يقول:

نبي بدا في جبهة الدهر غرة
بهته البهاء والشرف أجمع

سراج منير قد هدينا بنوره
وللشرك غي من دجى الليل أظلم

ومعدن درّ غلمتنا مسالكه
وقد نظمت في عقدها كيف تنظم

وروضة حسن في ربيع لنا بدت
ومنزلها البيت العتيق المعظم

له النسب الأعلى فيا مادح الورى
اذا كان مدحاً فالنسيب المقدم(١)

وله مدائح في الشخصيات البارزة من أمراء وأعيان وقضاة، وغالباً مايجنح فيها الى المبالغة، من ذلك قوله في مدح الأمير تمربغا الأفضلي المشهور بمنطاش الأشرفي نائب حماة، وقد انتصر في احدى وقائعه على اعداء الدولة:

مثلث شجاع له في الحرب مبتدأ
قد صيّر القوم في يوم اللقا خبرا

إن أبرقت في سما الهيجا صوارمه
رأيت خبث دما الأبطال قد مطرا

فمن رأى منهم برقاً يلوح له
يظنه سيفه الماضي قد إشتهرا

له مطالعة في الحرب حين يرى
دم العدا فوق طرس الأرض قد سطرا

إن راسل القوم أنشا في رسالته
سجعات ضرب بها الهامات قد نثرا(٢)

وغزله رقيق عذب، وأغلبه مقطعات، أو افتتاحيات لقصائد في المديح، من ذلك قوله في مطلع قصيدة يمدح بها العالم الجليل برهان الدين بن جماعة:

طربت عند سماعي وصف معتاك
فكيف لو كان هذا عند مغناك(٣)

---

(١) في العجز تضمين من مطلع قصيدة المتنبي في مدح سيف الدولة. وقد اشتبه مع النووية في لفظ النسيب. (ينظر شرح ديوان المتنبي ٢: ٢٤٩).

(٢) انشا: أنشأ مهلت همزته.

(٣) المغنى: المنزل.

ياساكني معنى حماة وحقكم من بعدكم ما ذقت عيشاً طيبا
ومهالك الحرمان تمنع عودكم من أن ينال من الثلاثي مطلبا
وإذا اشتهيت السير نحو ديارکم قرأ النوى في الأواخر من سبا(١)
وقد التفت إليك يادهري بطو لي تعتبي ويحق لي أن أعتبا
وأسرتني لكن بحق محمد يادهر كن في مخلصي مستوهبا

ولابن حجة شعر في الوصف، ولكنه ماثل في أغلب جوانبه بالتكلف والزخرفة البديعية. أما الاخوانيات فقد استأثرت بكثير من قصائده لكثرة علاقاته الشخصية برجال عصره. ونجد في هذا اللون من النظم الشوق، والعتاب والاعتذار، والشكاية. فمثلاً حين سعى بعض الوشاة بالوقيعة بين الشاعر وصديقه القر الأشرف الأميني صاحب ديوان الانشاء بدمشق، توقفت الرسائل بينهما بسبب ذلك، ثم تبين كذب الوشاة، فكتب الشاعر إلى صديقه قصيدة عاتبه فيها عتاباً رقيقاً، ومدحه في أعقابها. قال:

منّ بأميافارقين هجرهم كانوا ما عليهم لو أنهم كلموا (٢)
أغلقوا باب وصلهم فتح الله لهم بالهناء فتحاً مبينا
ملكوا رقنا فصرنا عبيداً ليتهم بعد رقنا كاتبونا
وغدونا لهم أرقا ولكن قد تجافوا بالهجر عمد رقوقنا
فطروا باليعاد منا قلوبا حين أضحوا عن وصلنا صائدينا

(١) في الأواخر من سبا : أي من سورة سبا .
(٢) كلموا : جرحوا ، وفي البيت جناس .

ياظبية نفرت عن مرتعي ورعت حشاشة القلب حين الله ترعاك
أغروك بي ثم قالوا كن على حذر واحيرتي بين تحذيرك وإغراك!
بسر هجرك عجباً قد قضيت لنا وشاهد الحسن بالاحسان حلاك
ومذ نحيت يادنيا بلا سبب ناديت يا مهجتي فارقت دناك
إن كنت أدركت معنى الحسن من صغر فقد فهمت الهوى من قبل إدراك
قيدت أسراك في حبر الهوى عجباً كفى القتال وفكني قيد أسراك
ياغادة البيض قلنا أنت غصن نقاً وما علمنا بأن البدر تخشاك
أنشيت للوجد في خدي من مثلي رسائلاً جل من بالحسن أنشاك
رققت أجامنا يوم النوى خلقاً فما أرق صهيلك وأجفاك!
ومذ ملكت عزاك النوم عن مقلي وحاسدي كلما أقبلت ولاك
لولاك ما قلت شعراً لا ولا حفظت عيني (قفا نبك) يوم البين لولاك

وتتجلى في شعره الذي نظمه في الحنين والشوق لوعة وأنين، وحسرة وألم، ولاسيما لمدينة حماة مرتع صباه ومربع هواه. مثل قوله:

م/٨/أ.ع.م

وصلوا هجرنا وعيش حواهم
لم تحل عنهم ولو قطعونا

حبوا بعدنا بسرعة هجر
فاسعنا بأسرع الحاسينا

إن شعره بسيط في معناه ومبناه، وقد اعتمد على البديع في ابراز صوره، وأكثر من إيراده في ثنايا شعره مثل براعة الاستهلال، وحسن التخلص، ورعاية النظير، والتضمين، والاقتباس، والتوجيه ....ولم يسلم شعره من العيوب كالسرقة، والتكرار، والأخطاء اللغوية.

الشروانواعه :

الفصل الأول

النثر وأنواعه

حينما سقطت الدولة العباسية، وجاءت دول أعجمية، تأثر النثر العربي — وهو شديد الصلة بالحياة السياسية والاجتماعية — بالظروف المستجدة، وأصابه شيء من الضعف والفتور.

والمتتبع للنثر في العصور المتأخرة يجده يسير في مسارين، الأول — وهو الكثير — يسلك طريق الصنعة والتكلف، وكتابه يقتدون بالطريقة الفاضلية التي جرت على غرار طريقة ابن العميد وأربت عليها في الاغراق في الجناس والطباق والتورية ومراعاة النظير، والولوع بالسجع وغريب اللغة، والتضمين والاقتباس، والاكثار من الاستعارات والكنايات، والاطناب في الشرح والتوضيح. والثاني — وهو القليل — يسلك طريق الطبع والسليقة والبساطة، وكتابه يتوخون وضوح العبارة والبعد عن الالتواء في الأسلوب، والمواءمة بين الفكرة والصورة اللفظية.

إن كمية النثر في هذا العصر كبيرة، فما هو ديني نجده في كتب الفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام، وما هو (لغوي نراه في مصنفات النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي وغيرها مما يمت بصلة الى اللغة من قريب أو بعيد) ومنها (ما هو نقلي كالكتب التراجم والطبقات والتاريخ بوجه عام.) ومنها ما هو (عقلي كالذي نجده في كتب المنطق والفلسفات وغير ذلك من الأبحاث الفلسفية) ومنها ما هو (اداري أو سياسي كتلك الرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن الخلفاء إلى السلاطين أو عن السلاطين الى النواب والعمال والقضاة والوزراء وأرباب الدولة من أهل السيف والقلم ومنها (ما هو اجتماعي

كتلك الرسائل الاخوانية التي كانت تقال إما في الشكر أو في المباسطة والمداعبة وغير ذلك) مما كان يكتب فيه الأخوان بعضهم إلى بعض من وصف حادثة، أو ذكر نازلة، أو مما يدخل في باب المشاهدة والتجربة (١).

وقد ألفت كتب كثيرة في فن النثر وأنواعه، ومن أشهر الكتاب في صدر هذه الحقبة والنابهين من بعدهم : القاضي محيي الدين بن عبد القاهر (ت ٦٩٢) وهو رأس المترسلين في دولة المماليك البحرية، (وشهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي (ت ٧١٩) مؤلف كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل») وأبو العباس (أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٨٤٧) مؤلف «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار») و« التعريف بالمصطلح الشريف» وصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (ت ٧٦٤) صاحب المصنفات المشهورة وشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١) مؤلف «صبح الأعشى في صناعة الانشاء» وتقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥) مؤلف «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، وابن خلدون المؤرخ المشهور (ت ٨٠٨)، وشهاب الدين الخفاجي المصري (ت ١٠٦٩) مؤلف «ريحانة الألباء»، وأبو الخير عبد الرحمن السويدي البغدادي (ت ١٢٠٠) مؤلف «حديقة الزوراء».

الخطابة :

بعد أن تمزقت الدولة العباسية، وتناثرت أشلاؤها، وتناوبت قبائل مختلفة على حكمها، وفشت العجمة، هبطت مكانة الخطابة، وتقوضت أركانها ومقوماتها، وقل عدد الخطباء، وكان بعضهم يستظهر خطب السابقين ويرددها على المسامع، خاصة خطب عبد الرحيم بن محمد بن أسماعيل بن نباتة (ت ٣٩٤).

وهذا لايعني أن الساحة خلت من الخطباء المجيدين الذين يمتلكون (القدرة على الاقناع والتأثير في النفوس بلغة رصينة بعيدة عن الخطأ واللحن) ولكن

(١) ينظر كتاب الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٢٨٩.

أ_ الخطابة :

كتلك الرسائل الاخوانية التي كانت تقال إما في الشكر أو في المباسطة والمداعبة وغير ذلك مما كان يكتب فيه الأخوان بعضهم إلى بعض من وصف حادثة ، أو ذكر نازلة ، أو مما يدخل في باب المشاهدة والتجربة (١) .

وقد ألفت كتب كثيرة في فن النثر وأنواعه ، ومن أشهر الكتاب في صدر هذه الحقبة والنابهين من بعدهم : القاضي محيي الدين بن عبد القاهر (ت ٦٩٢) وهو رأس المترسلين في دولة المماليك البحرية ، وشهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي (ت ٧١٩) مؤلف كتاب «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» وأبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٨٤٧) مؤلف «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» و« التعريف بالمصطلح الشريف» وصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (ت ٧٦٤) صاحب المصنفات المشهورة وشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١) مؤلف «صبح الأعشى في صناعة الانشاء» وتقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥) مؤلف «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» ، وابن خلدون المؤرخ المشهور (ت ٨٠٨) ، وشهاب الدين الخفاجي المصري (ت ١٠٦٩) مؤلف «ريحانة الألباء» ، وأبو الخير عبد الرحمن السويدي البغدادي (ت ١٢٠٠) مؤلف «حديقة الزوراء» .

الخطابة :

بعد أن تمزقت الدولة العباسية ، وتناثرت أشلاؤها ، وتناوبت فئات مختلفة على حكمها ، وفقدت الوحدة ، هبطت مكانة الخطابة ، وتقوضت أركانها ومقوماتها ، وقل عدد الخطباء ، وكان بعضهم يستظهر خطب السابقين ويرددها على المسامع ، خاصة خطب عبد الرحيم بن محمد بن أسماعيل بن نباتة (ت ٣٩٤) .

وهذا لايعني أن الساحة خلت من الخطباء المجيدين الذين يمتلكون القدرة على الاقناع والتأثير في الجمهور بلغة رصينة بعيدة عن الخطأ واللحن ، ولكن

(١) ينظر كتاب الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٢٨٩ .

هؤلاء الخطباء كانوا قلة قليلة لم تستطع أن تغطي الرقعة الاسلامية وتسمع صوتها الى الناس جميعاً .

كانت الخطب تلقى في مناسبات كثيرة ، منها الاستنفار لصد غارة ، أو رد أعتداء ، أو نجدة أخوان واصدقاء ، ومنها ما كانت تلقى على المنابر ايام الجمع والاعياد والمناسبات الدينية الاخرى ، وهي تعتمد على اثارة العاطفة لتحبب اليها الخير ، وتنفرها من الشر ، وتوجهها الى تقوى الله وحبه وخشيته وقلوب السامعين متفتحة للتأثر بالخطب الدينية ، لانها تصلهم بالخالق سبحانه وتعالى ، وتعلو بهم عن الارض الى السماء ، وتبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والاخرة ، فالخطيب يتكلم من قبل الله ، والموضوع ديني روحي وثمرة الخطبة سعادة الفرد والمجتمع ، وتمجيد الله وطاعته وابتغاء الخير (١) .

وكانت الخطبة تلقى على ضربين : الاول كونها تلقى مشافهة بعد أن يقف الخطيب على منبر أو منصة أو فوق مرتفع من الارض ، مصحوباً كلامه بالحركات والسكنات والاشارات والايماءات التي جرى عليها اصطلاحها بقصد التأثير على مشاعر الجماهير ، أما الثاني فهو أن تكتب الخطبة كتابة ، وذلك كالخطب التي دأب رجال الدين على ذكرها بين يدي المؤلفات والمصنفات الاصولية والفقهية والتفسيرية وغير ذلك مما

كانوا يصنعونه في مختلف العلوم الشرعية وكالتي كانت تكتب في شأن زواج أمير أو أبن سلطان من أحدى بنات الخلفاء أو الامراء أو السلاطين (٢) كخطبة الصداق التي كتبها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر للملك السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس البندقداري على بنت الامير سيف الدين قلاوون الصالحي الالفي الذي أضحى من بعد سلطاناً ، واليك طرفاً منها (٣) : «وبعد ، فلو كان اتصال كل شيء بحسب المتصل به في

(١) عن الخطابة للدكتور أحمد محمد الحوفي ص ١٠٥ .
(٢) ينظر كتاب (الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري) ص ٢٩١ .
(٣) صبح الاعشى ١٤ : ٣٠٠ .

م/١/٩/ع.م

تفضيله . لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله . ولا الغيث شيئاً من الرياض لمحلوله . ولا الذكر الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله . ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله . لكن ليتشرف بيت يحل به القمر ونبت يزوره المطر . ولسان يتعوذ بالآيات والسور .

وتشار يتجمل باللآلىء والدرر . ولذلك تجملت برسول الله صلى الله عليه وسلم — أصهاره وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه وتزوج — صلى الله عليه وسلم — منهم . وتشرفت لهم مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضي عنهم.

ان الطابع العام للخطاب آنذاك كانت متشابهة تقريباً في التزام السجع . واستخدام فنون البديع كالجناس والطباق والمقابلة والترصيع والتضمين والاقتباس . كما امتازت باختيار الألفاظ والعبارات . والوحدة الوثيقة التي تربط أجزاءها ومعانيها في موضوع واحد . واليك أنموذجاً لاحدهم وهو (خطبة النيل لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) :

«الحمد لله العظيم القادر الحسيب الجليل . الذي أسبغ على عباده فضله وكرمه الجزيل الحكيم ومن حكمته أجراؤها النيل . أنزله من الجنة بتأثيره . وارساله لنفع العباد كما أراد فليس له شبيه ولا مثيل . أحمده حمداً يبرئ السقام ويشفي العليل . واشهد أن لا اله الا الله الملك الحق الوكيل . واشهد أن محمداً عبده ورسوله الممدوح في التوراة والانجيل والتنزيل . وصلى الله عليه وعلى آله واصحابه ما استبان السبيل . واتضح الدليل)

أيها الناس . إن لله عليكم نعماً لاتعرفون لها قدراً . ولا تطيقون لمكافأتها حمداً ولا شكراً . أسبغ نعمته الظاهرة والباطنة عليكم اترى . واطلع على أحداثكم فأسبل حاسته ستراً . وصفحاً وستراً . فلو احتبس هذا النيل عن وفائه ولو شيئاً نزراً . لما استطعتم عنه صبراً . فتأملوا كيف ملأ الأودية مداً وجزراً . وعم البلاد بطناً وظهراً . فسبحان من أنزله من بحر حظمته الى سماء مملكته . بكيل مكيول . ووزن موزون . ويعلم

ب- المقامة

فنون اخرى :

وشاعت في العصور المتأخرة فنون نثرية أخرى ، الى جانب الخطابة والكتابة الديوانية والرسائل الاخوانية ، مثل المقامات التي تغيّرت طريقة كتابتها عما وضعه السابقون ولاسيما بديع الزمان الهمذاني وقاسم بن علي الحريري ، اذ تخلّصت من الرواية ، واكتفت بالحكاية . وقد عبّر الكتاب بهذا الفن عن أفراحهم وأحزانهم ، وجدهم وهزلهم . واستخدمه بعضهم في الأغراض التي يستخدم فيها الشعر مثل المديح والهجاء والرثاء والوصف . ولمعت اسماء كثيرة في كتابة المقامات ، منهم : ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني (ت ٦٩٧ هـ) ، وأبو الندا معد بن نصرالله المعروف بابن الصيقل الجزري البغدادي (ت ٧٠١ هـ) ، وشمس الدين محمد بن الحسن الصائغ الدمشقي (ت ٧٢٢ هـ) ، وعمر بن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) وأبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد (ت ٧٥٠هـ) . ونقل هنا جزءاً من مقامة ابن الكازروني المعروفة بـ «المقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية» التي جاءت وصفاً دقيقاً للوقائع الداعية والمجازر الرهيبة التي اتابت بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم بالله ودخول الجيوش التترية المتعطشة للدم . قال (١) :

«خطر ببالي في بعض الليالي ، أن أليس سربالي البالي ، وأفارق أشبالي ، وأجعل الله اتكالي ، في قطع فيافي البيداء ، ورفض الدعة للحث الى الزوراء ، فرأيت في المنام قائلاً أسمع نداءه ولا أخترق مرآه ، ويملأ سمعي صوته وان كنت لا أراه ، يقول : ياعبدالله ، «فاذا عزمت فتوكّل على الله»(٢) فانهض بي عزمي لاجابة الداعي ، وقعد أطفالي يتحبون لوداعي ، وأنا أعدّ للرحلة زادي ، وأملأ باناء ليعد المسافة مزادي (٣) . فلما اقتعدت راحلتي وألصيتها في قطع مسافتي ، واقيتها بلدة خالية ، وأمة جالية ،

(١) المقامة في قواعد بغداد ص ١٥ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .
(٣) المزاد : الربة الماء .

ودمنة حالية ، وعهنة جالية ، وقصوراً خاوية ، وعراصاً باكية . قد رحل عنها ساكنها ، وبان عنها قاطنها ، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكل واد وقصورها المشيدة مهدومة ، ونعماؤها مسلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية باسان الحال على سكانها . عظام العظام بالية ، تبني عليها الرياح السافية . «فهل ترى لهم من باقية (١) » . فوقفت أبكيها ، وأندب ربوعها ومن كان فيها :

وأندب أطلالها تارة ... وأبكي على فرقة الظاعنينا
فلو ذهبت مقلة بالبكاء ... لفرط الغرام لكنت عمينا

وهناك شخص قد بصر بحالي ، وهو يذري دمعه لسماع ارتحالي ، فقلت له : ماجلادك فقد أعجبني حيالك . فقال : إليك عني ، واذهب لسبيلك ودعني . فاني أتمتع بالبكاء ، وأسبح الدمع على هذه الأحداء وأقيم مأتم العزاء . فلو رأيت من هذه البلدة ما رأيت ، لأذرفت معي الدمع ولأسبغ بكاؤك الجميع . فقلت له : حدثني كأني أشاهد ، وصف لي ماكان بها من المشاهد . فقال : يتصدع قلبك ، ويطير لسماع ذلك لبك . واذا شرعت فاتبعني ، وحدث عن نفسك ولا تروعني . فاسرعت خلفه أقص أثره ، حتى وقفت بي على جبرة ما اعتبره ، فرأيت حرم الخليفة مهاناً ، بعد أن كان كعبة وأماناً ، فطاف بي ببعض القصور ، واعتبر عن الباقي لقصوره ...»

هذه المقامة كما لاحظنا — وان كانت مليئة بألوان الزخارف اللفظية والمحسنات — تتسم بوضوح القصد وصدقه ، وقوة التعبير وتأثيره ، وهذا مالمراه أيضاً في مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرمحي التي ذكر فيها هجوم التتر على مدن الشام ، ولاسيما حلب التي كثر فيها القتل والسلب والنهب والتخريب (٢) .

(١) سورة الحاقة ، الآية ٧ .
(٢) تحفة المختصر في أخبار البشر ٢ : ٣٠٨ .